

# الباب التاسع والعشرون

## الأسس السياسية والخلقية

### محاولات لدراسة الموضوع

إذا أقدمنا الآن على تصوير اليابان التي أسدل عليها الستار عام ١٨٥٣ ، فلنذكر أنه من العسير علينا أن نفهم - كما قد يكون كذلك من العسير أن نحارب - شعباً يبعد عنا خمسة آلاف ميل ، ويختلف عنا لونا ولغة وحكومة وديانة وخلقاً وعادات وشخصية واهدافاً وأدباً وفناً ، ولقد كان « هيرن » أوثق صلة باليابان من أى كاتب غربي آخر في عصره ، ومع ذلك فقد ذكر « الصعوبة الشديدة في إدراك وفهم ما يكمن تحت السطح الظاهر من الحياة اليابانية »<sup>(١)</sup> ، وكتب أديب ياباني بارع مقالة يذكر فيها الغرب بأن : « ما تعلمه عنا قائم على ما جاءك من ترجمة هزيلة لأدبنا ، إن لم يكن قائماً على الحكايات المشكوك في صحتها مما يرويهِ لك عنا الرحالة العابرون ... فما أكثر ما يروعننا نحن الآسيويين هذا النسيج العجيب الذي يمزج الحقائق بالأوهام حين تتحدثون عنا أيها الغربيون ؟ فتراكم تصوروننا كأنما نعيش في عالم كله عطر من أزهار اللوتس ، أو نعيش على طعام من الفئران والصراصير »<sup>(٢)</sup> فلن نجد فيما يلي - إذن - أكثر من محاولات - قائمة على معرفة مباشرة موجزة أشد إيجاز - لدراسة الحضارة اليابانية ، والخلق الياباني : وينبغي لكل باحث أن يصحح هذه المحاولات بما يقع له من خبرة شخصية طويلة ، فالدرس الأول الذي تلقيه علينا الفلسفة هو أننا قد نكون جميعاً مخطئين .

## الفصل الأول

### طبقة الساموراي (أى حملة السيف)

الإمبراطور الذى لا حول له - سلطة « الشوجن » ( أى الحاكم  
العسكرى ) - سيف « الساموراي » - قانون « الساموراي »  
« هارا كيرى » - « الروفانات » السبعة والأربعون - حكم  
قضى بتخمينه

يقوم على رأس الأمة - من الوجهة النظرية - الإمبراطور المقدس ،  
وكان البيت الحاكم حقيقة - وأعنى به الحكم العسكرى الوراثة - يسمح  
للإمبراطور وحاشيته بمبلغ يعادل خمسة وعشرين ألف ريال كل عام ، مقابل  
الاحتفاظ بالأسطورة النافعة التى تؤثر فى النفوس أثراً عميقاً ، أسطورة اطراد  
الحكم فى بيت واحد (\*) ؛ وكان كثيرون من رجال الحاشية يزاولون حرفاً  
يدوية منزلية ليكسبوا نفقات عيشتهم : فبعضهم يضع المظلات ، وبعضهم  
يصنع الملاعق الخشبية أو لاقطات الفضلات من بين الأسنان أو ورق اللعب ؛  
وجعل الحكام العسكرىون من أسرة « توجواكا » من مبادئهم ألا يتركوا  
للإمبراطور ذرة من السلطان ، وأن يعزلوه عن الشعب ، وأن يحيطوه بالنساء  
ويفتنوا من عضده بالتخث والتعطل ، ونزلت الأسرة الإمبراطورية عن  
سلطاتها فى كفاح ، وقنعت بأن ترسم للعلية ألوان البدع فى الثياب (٣) .

أما « الشوجن » ( أى الحاكم العسكرى ) فقد كان حينئذ ينعم بثروة  
اليابان التى أخذت تتزايد ، واصطنع لنفسه امتيازات هى عادة من حق  
الإمبراطور فإذا سار فى الطريق محمولاً فى عربته التى يجرها ثور ، ومحمولاً  
فى محفته ، أمرت الشرطة كل المنازل على طول الطريق أن تقفل أبوابها  
والمصارع الخشبية فى نوافذها العليا ، وأن تطفأ كل النيران وأن تحبس الكلاب

(\*) ربما كان هذا المبلغ مساوياً لربع مليون ريال بقيمة العملة الأمريكية الحالية .

والقطط كلها داخل الدور ، وأن يسجد الناس على جانبي الطريق ، رءوسهم على أيديهم وأيديهم على الأرض<sup>(٤)</sup> ؛ وكان « للشوجن » حاشية كبيرة ، منها أربعة مضحكين وثمانى سيدات مثقفات واجبهن أن يسليهن فى غير التزام لقواعد الاحتشام<sup>(٥)</sup> ، وكان إلى جانبه مجلس وزراء استشارى قوامه اثنا عشر عضواً : كبير الوزراء ، وخمسة وزراء ، ثم ستة من الشيوخ يكونون مجلساً أصغر ؛ وكان هناك — كما كان فى الصين — مجلس للرقابة مهمته أن يشرف على المناصب الإدارية كلها ، وأن يراقب أمراء الإقطاع ؛ مع أن هؤلاء الأمراء — ( أو « الدايمو » كما يسمونهم ومعناها « أصحاب الأسماء العظمى » ) لم يكونوا يعترفون من الوجهة الصورية إلا بالإمبراطور ، هو الذى يولونه ولاءهم ، بل استطاع بعضهم — مثل أسرة شيادزو التى كانت تحكم إقليم ساتسوما — أن ينجحوا فى الحد من سلطة الشوجن ، حتى انتهى بهم الأمر إلى طرده من الحكم

وكان يتلو أمراء الإقطاع طبقة السادة ( بارونات ) ثم يتلو هؤلاء طبقة المشرفين على الأراضى ؛ وكذلك كان يحيط بالأمراء ألوف من فئة « الساموراي » — والساموراي هم حراس يحملون السيف ؛ فالقاعدة الرئيسية فى المجتمع الإقطاعى اليابانى هى أن كل رجل من السادة هو جندى ، والعكس صحيح ، أى أن كل جندى هو كذلك من السادة<sup>(٦)</sup> فهأنا يقع أكبر اختلاف بين اليابان وبين الصين المسالمة التى ظنت أن شرط الرجل من السادة هو أن يكون عالماً لا أن يكون محارباً ؛ وعلى الرغم من أن حملة السيف هؤلاء كانوا يحبون قراءة القصص التى تغذى فيهم انتفاخ الأوداج ، مثل القصة الصينية التى عنوانها « قصة المالك الثلاثة » ، بل كانوا إلى حد ما يصوغون حياتهم على نموذج تلك القصص ، إلا أنهم كانوا يزدردون العلم للعلم ، وكانوا يسمون ، العالم الأديب بالسكران الذى يفوح برائحة الكتب<sup>(٧)</sup> ، وكان لهم امتيازات كثيرة ، فهم معفون من الضرائب ، ولهم الحق فى مقدار من الأرز يعطيهم

إياه السيد الذى يخدمونه ، ولم يكن يطلب إليهم أن يعملوا شيئاً إلا أن يموتوا  
فى سبيل وطنهم إذا ما دعت إلى ذلك الظروف ؛ وكانوا يحترقون الحب  
ويعدون له لعبة رشيقة ، ويؤثرون علاقة الصداقة على نمط إغريقى : والميسر  
والعريضة كانا جزءاً متما لعيشهم ولكى يحافظوا على مران سيوفهم ، كانوا  
يدفعون المال للجلاد فى مقابل أن يسمح لهم بجز رقاب المحكوم عليهم بالإعدام (٨)  
فسياف رجل من فئة « الساموراي » هو بمثابة روحه - على حد تعبير « أياسو »  
وكثيراً جداً ما كان يجد الفرصة التى تدعوه إلى استعمال سيفه ، على الرغم  
من المدة الطويلة التى نعمت فيها اليابان بالسلام ؛ فله الحق - إذا أخذنا  
بما يقوله « أياسو » (٩) - أن يقضى فوراً على أى إنسان من الطبقات الدنيا  
إذا ما أساء إليه ؛ وإذا كان سيفه جديداً وأراد أن يجربه ، فيجوز أن يجربه  
فى سائل كما يجوز أن يجربه فى كلب (١٠) وفى ذلك يقول « لُنْجفورد » :  
« إن سيافاً مشهوراً قد اقتنى سيفاً جديداً ، فوقف إلى جانب « ينون باشى »  
( وهذا اسم جسر فى وسط مدينة ييلو ) ينتظر فرصة لاختبار مضاء سيفه ،  
فجاء فلاح بدين ساعياً فى الطريق ، مرحاً بفعل الحمر ، فقلبه السيف  
بضربة يسمونها « ناشى وارى » ( ومعناها شق الكثرى ) وأصابته الضربة  
مرادها إذ شقت الرجل نصفين ، من قمة رأسه إلى مفرق فخذي ، ففضى  
الفلاح فى طريقه غير عالم بما نزل به ، حتى اصطدم بحمال فسقط نصفين  
مشطورين على أدق صورة (١١) ، فأتفه الفرق بن « الواحد » و « الكثير »  
هذا الموضوع الذى دوخ الفلاسفة فى فهمه .

لكن هؤلاء السيفين كانت لهم لطائف أخرى غير هذه المهمة المرحية التى  
كانوا يحولون بها الفناء خلود ؛ فقد التزموا أوضاعاً صارمة اشتراطها  
للرجل الشريف - ويطلق على مجموعة هذه الأوضاع اسم « بوشيلو » (\*) .

ومعناها « طرائق الفروسية » وجوهر فكرتها فيه تعريف لما ترمى إليه من فضيلة : « هي القدرة على اختبار سلوكك في الحياة وفق ما يملكه العقل دون تردد ، وأن تموت حين يجب عليك أن تموت ، وأن تضرب حيث ينبغي لك أن تضرب » (١٢) وكانوا يحاكمون بمقتضى تشريعهم هذا ، وهو أسمى من القانون السائد بين عامة الناس (١٣) وكانوا يزدرون كل الأعمال والمكاسب المادية ، ويأبون أن يقرضوا المال أو يقترضوه أو يحسبوه ، وقلما أخلفوا وعودهم ، وكانوا لا يترددون في المخاطرة بحياتهم عوناً لكل من استنجدهم المعونة ؛ وأخذوا على أنفسهم أن يحيوا حياة خشنة مقتررة فلا يأكلون في اليوم إلا وجبة واحدة ، وكانوا يروضون أنفسهم على أكل ما صادفهم من طعام كائناً ما كان ؛ وكانوا يحتملون الآلام على اختلافها صامتين ، ويكبحون في أنفسهم كل ما قد يدل على انفعالاتهم الداخلية ، وعلموا نساءهم كيف يتهلن بشراً إذا ما نعى إليهن أن أزواجهن قد قضوا نحبهم في ساحات القتال (١٤) ولم يكونوا يلتزمون طاعة إلا طاعة الولاء لرؤسائهم ، فطاعة الرؤساء جزء من تشريعهم الذى وضع تلك الطاعة فوق حب الآباء لأبنائهم أو الأبناء لآبائهم ، ومن مألوف الأمور عند « الساموراي » ( أى هؤلاء السيفيين ) أن يخرج الرجل منهم أمعاء نفسه إذا ما مات سيده لكي يخدمه ويحميه في الحياة الآخرة ؛ فلما كان « الشوجن » ( أى الحاكم العسكرى ) الذى يدعى « أيمتسو » يحضر سنة ١٦٥١ ، ذكر كبير وزرائه « هتو » بواجبه فى أداء الـ « چنشى » ( أى اللحاق بسيد بعد موته فقتل « هتو » نفسه دون أن ينبس ببنت شفة ، ونسج على منواله كثير من الأتباع (١٥) ولما صعد « الإمبراطور ميسو هيتو » إلى أسلافه سنة ١٩١٢ انتحر الجنرال « نوجى » وزوجته ولاء منهما للإمبراطور (١٦) فلتست ترى من التقاليد عند سائر الشعوب بما فى ذلك تقاليد روما التى كانت تخرج جنوداً من الطراز الأول ، ما بث شجاعة أبسل ، أو زهداً أصرم ،

أو ضبطاً للنفس أقوى مما كانت تقتضيه تقاليد هؤلاء « السيفين » من أعضاء تلك الفئة التي تعرف عندهم باسم « ساموراي » :

وآخر القوانين في تشريع « بوشيدو » ( أى تشريع طائفة السيفين ) هو قانون « هارا كيرى » - ومعناها الانتحار بإخراج الأمعاء ؛ ولا تكاد الظروف التي تقتضى من السيف أن ينتحر على هذا الوجه تقع تحت حصر فقد كان الأمر من كثرة الوقوع بحيث لا يكاد يستوقف النظر ؛ فإذا حكم بالموت على رجل من ذوى المكانة الاجتماعية ، سمح له - إذا أراد الإمبراطور أن يدل على تقديره له - بأن يقربطنه بنفسه من اليسار إلى اليمين ، ثم يشقها إلى أسفل ، مستخدماً في ذلك سيفه الصغير الذى كان الواحد منهم لا ينفك مصطحباً له من أجل هذه الغاية ؛ وإذا هزم أحدهم في القتال ، أو اضطر إلى الاستسلام لعدوه ، كان الاحتمال بأن يقربطنه بيده معادلاً تماماً لاحتمال أن يأبى على نفسه ذلك ( فكلمة « هارا كيرى » معناها شق البطن ، وهى كلمة سوقية قلما ينطق بها الياباني ، إذ هم يفضلون كلمة « سيبوكو » ) فقد حدث أن خضعت اليابان سنة ١٨٩٥ لضغط الدول الأوروبية في إخلاء « لياوتنج » فارتكب أربعون رجلاً من العسكريين « هارا كيرى » احتجاجاً ؛ كذلك حدث في حرب سنة ١٩٠٥ أن أزهق عدد كبير من الضباط والجنود اليابانيين نفوسهم على هذا النحو ، فذلك عندهم خير من الوقوع في أسر الروس ، وإذا لقي الرجل من فئة « الساموراي » ( السيفين ) إساءة من سيده ، فإنه - إن كان سيفاً أصيلاً - يهلك حياة نفسه عند باب ذلك السيد ؛ وكان فن « السيبوكو » ( أى بقر البطن انتحاراً ) - وهو ذو أوضاع دقيقة بمثابة الطقوس الدينية . في طليعة ما يلقن للشباب من فئة « الساموراي » ، وآخر علامات المودة التي يبديها الصديق لصديقه أن يقف إلى جانبه ليجز له رأسه فيفصلها عن جسده ، بعد أن يكون ذلك الصديق قد بقر بطن نفسه بيده (١٢) ؛ من هذا التدريب وما أحاط به من

تقاليد نشأ ما يتصف به الجندى الياباني من عدم الخوف من الموت (\*) .  
كذلك كان يسمح بالاغتياي - كما كان يسمح بالانتحار - في ظروف  
معيّنة أن يحل محل القانون ؛ فاليابان في نظامها الإقطاعي كانت تقتر في الإنفاق  
على رجال الشرطة ، بوسائل كثيرة منها أن تجيز لابن القتييل أو أخيه أن يثار  
لنفسه بدل الالتجاء إلى القانون ؛ ولقد أدى هذا الاعتراف بحق الثأر - إلى  
جانب إيحاءة بنصف القصص والمسرحيات في الأدب الياباني - إلى الحيلولة دون  
كثير من الجرائم ؛ ومع ذلك فالرجل من فئة « الساموراي » ( أى السيفين )  
كان يحس عادة أن واجبه يقتضيه ارتكاب ( الهارا كبرى ) بعد استخدامه لحقه  
في الثأر بنفسه من عدوه ؛ مثال ذلك ما فعله « الرونانا » الأربعون المشهورون  
وهم فئة من السيفين لم يكونوا أعضاء رسميين في تلك الطائفة ( حين  
تأثروا من « كوتسوكي » لما ارتكبه من قتل اغتياي ، فعلوا ذلك وهم يصطنعون  
له غاية الرقة ويقدمون له المعاذير ، ثم انسحبوا في وقار إلى ضيعات عينها لم  
« الحاكم العسكري » وقتلوا أنفسهم قتلا التزموا فيه غاية الثبات ( كان ذلك  
سنة ١٧٠٣ ) ، وأعاد الكهنة رأس « كوتسوكي » إلى رئيس حاشيته ، فأخذ  
منهم الرأس وأعطاهم هذا الإيصال البسيط :

مذكرة :

١ رأس واحد .

( \* ) كانت الـ « هارا كبرى » محرمة على النساء والسوقة ، لكن كان يسمح للنساء أن  
يرتكن ما يسمى « جيباكي » - ومنها ما أن يؤذن لمن - احتجاجاً على ما يصيبهن من إساءة -  
أن يخترن من رقابهن بالخناجر ، وأن يقطعن الشرايين بضربة واحدة ؛ فكانت كل امرأة  
لها مكانة اجتماعية تلقى تدريباً في عملية جز الرقبة ، ويعلمونها كيف تربط ساقها قبل قتلها  
نفسها ، خشية أن تقع الأبصار على جثتها وهي في وضع لا يتفق مع ما تقتضيه العفة ( ١٨ ) .

٢ - حزمة ورقية واحدة .  
تسلمت الشينين المذكورين أعلاه .

( توقيع ) سايارا موجوباي  
سايو كوناى

ولعل هذه الحادثة أن تكون أشهر حادثة في تاريخ اليابان كله وأصدقها تمثيلاً لليابانيين ، وهى من أدل الحوادث تصويراً للخلق اليابانى إذا أردت أن تفهمه ؛ والذين اقرفوا ذلك الفعل ، ما يزالون - فى عين الشعب - أبطالا وقديسين ؛ وإلى يومنا هذا ما يزال الأتقياء يزخرفون قبور أولئك النفر ، ولا ينقطع البخور عن مثواهم (١٩) .

ولما دنا عهد وصاية « أياسو » على العرش من ختامه ، نهض شقيقان ، هما « ساكون » و « نايكى » ، وعمر الأول منهما إذ ذاك أربعة وعشرون ، وعمر الثانى سبعة عشر ، وحاولا أن يقتلاه لما أنزله بأبيهما من مظالم - فى رأيهما - فوقعا فى قبضة الحراس ساعة دخولهما فى المعسكر ، وحكم عليهما بالموت ؛ لكن « أياسو » تأثر بما أبدياه من شجاعة ، وخفف عنهما حكم الإعدام بحيث أصبح أن يتركا ليقتلا نفسيهما على الطريقة المألوفة فى إخراج المرء لأمعاء نفسه ؛ ثم قضى كذلك - مراعاة لعادات عصره - أن يشمل هذا القرار الرحيم أخاهما الأصغر « هاشيارو » وقد كان فى الثامنة من عمره ؛ وقد خلف الطبيب الذى كلف بملاحظة هؤلاء الصبية فى قتل أنفسهم ، وصفاً لما رأى ، فيما يلى :

لما أجلسوا جميعاً فى صف ليرحلوا عن هذا العالم رحلة لا أوبة بعدها ، التفت « ساكون » إلى الأخ الأصغر قائلاً : « اذهب أنت أولاً ، لأنى أود أن أستيقن من أنك تؤدى الأمر على وضعه الصحيح » فلما أجاب الصغير بأنه لم يشهد قط عملية ال « سِپُولكو » من قبل فإنه يجب أن يرى أخويه وهما يؤديانها ، حتى يستطيع بعدئذ أن يحذو حذوهما ، فابتسم أخواه الأكبران

وعيناها تلمعان ، وقالوا : « لقد أصبت أيها الأخ الصغير ، ويحق لك الآن أن تفخر بأنك ابن أبيك » ؛ ولما وضعاه بينهما ، طعن « ساكون » خنجره في الجانب الأيسر من بطنه وقال : « انظر ، أخي ، أنفهم الآن ؟ والذي ينبغي أن تراعيه هو ألا تضرب الخنجر عميقاً حتى لا يطرحك على الأرض ، بل كن أميل بجسدك إلى الأمام ، واجعل ركبتك في وضع ثابت » . وفعل « نايكى » ما فعله « ساكون » ، وقال للصبي : « افتح عينيك خشية أن تبدو كالمرأة وهي تحتضر ، وإذا أحسست أن شيئاً في جوفك يعوق لإخراج خنجرك ، وأن قواك تخور ، فاجمع شجاعتك وضاعف جهدك في شد خنجرك جانباً لتقطع به البطن قطعاً أفقياً » فنظر الصبي إلى أخيه عن يمينه وإلى أخيه عن يساره ، حتى إذا ما رآهما قد أسلما الروح ، خلع ثيابه هادئاً عن نصف جسده ، واحتذى حذو ما يراه عن يمينه وعن يساره « (٢٠) » .

## الفصل الثاني

### القانون

التشريع الأول - المسئولية الجمعية - العقاب

كان التشريع القانوني في اليابان مكملاً عنيفاً لما كان يتم بالاغتتيال وبالثأر وقد استمد ذلك التشريع بعض أصوله من تقاليد الشعب القديمة ، كما استمد بعضها الآخر من التشريعات الصينية في القرن السابع ، ذلك أن القانون قد صعب الدين في هجرة الثقافة من الصين إلى اليابان (٢١) ، وبدأ « تنشى تينو » صياغة مجموعة من القوانين ، كملت وأذيعت في عهد الإمبراطور اليافع « مومو » عام ٧٠٢ ، لكن هذا التشريع وغيره من تشريعات العصر الإمبراطوري ، أهملت في العصر الإقطاعي ، إذ جعل كل حاكم إقطاعي يسن لنفسه ما شاء من تشريع مستقلاً عن سائر المقاطعات . ولم يعترف الرجل من طبقة « السيفين » بقانون إلا ما يريد وما يأمر به مولاه (٢٢) .

وكانت العادة في اليابان حتى سنة ١٧٢١ أن تكون الأسرة كلها مسئولة عن كل فرد من أفرادها ، فتضمن حسن سلوكه ؛ وكذلك كانت الأسرة الواحدة - في معظم الأقاليم - توضع في مجموعة من خمس أسر ، تكون كل منها مسئولة عن سائر أفراد المجموعة ، فالرجل إذا حكم عليه بالصلب أو بالحرق ، قضى كذلك بالموت على أبنائه الكبار ، وبالنفى على أبنائه الصغار عندما يبلغون الرشد (٢٣) ، وكان نظام المحنة متبعاً في التحقيق على نحو ما كان متبعاً في العصور الوسطى ، ولبث التعذيب شائعاً - في صورته الخفيفة - حتى هذا العصر الحديث واصطنع اليابانيون من وسائل التعذيب إزاء المسيحيين ؛ ناسجين على منوال محاكم التفتيش نسجاً فيه انتقام لما أنزله المسيحيون أنفسهم

بأنفسهم في تلك المحاكم ، لكنهم كثيراً ما كانوا أدق في وسائلهم التعذيبية . فيربطون الرجل بحبال في وضع وثيق . يزيد المربوط ألاماً كلما مرت به لحظات الزمن لحظة بعد لحظة (٢٤) ، وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى الضرب بالسياط لأتفه الأخطاء ، وكان الإعدام لديهم عقوبة على كثير جداً من أنواع الجرائم ، وجاء الإمبراطور شومو ( ٧٢٤ - ٥٦ ) فألغى عقوبة الإعدام وجعل الرحمة أساس حكمه ، لكن الإجرام زادت نسبته بعد موته ، حتى لم يقتصر الإمبراطور « كوشين » ( ٧٧٠ - ٨١ ) على إرجاع عقوبة الإعدام بل أضاف إلى ذلك أنه أمر بأن يضرب اللصوص بالسياط علناً حتى يلفظوا الروح (٢٥) ، وكانوا ينفذون الإعدام بالخنق وجز الرأس والصلب وقطع الجسد أربعة أرباع والجرق أو الغلى في الزيت (٢٦) ، وكان « أياسو » قد ألغى العادة التي تقضى بأن يمزق المتهم نصفين بشده بين ثورين ، كما ألغى العادة التي تقضى بأن يربط المتهم في عمود وسط الملاء ، ثم يطلب من كل مار أن يأخذ نصيبه في تقطيع جسده بمنشار ينشره من كتفه فأسفل (٢٧) ، وكان من رأى « أياسو » أن كثرة الالتجاء إلى العقوبات الصارمة لا تدل على إجرام الشعب بمقدار ما تدل على فساد الموظفين وعجزهم (٢٨) ، وكم ساء « يوشيموني » أن يجد صجون عصره بغير استعدادات صحية ، وأن بين المسجونين فئة بدأت محاكماتها منذ ست عشرة سنة ولم تنته بعد ، حتى لقد نسيت الاتهامات الموجهة إليهم ، ومات الشهود (٢٩) ، وأخذ هذا الحاكم العسكري الذي كان أكثر هذه الطائفة استنارة في إصلاح السجون ، وعمل على السرعة في الإجراءات القضائية ، وألغى المسئولية الأسرية ، وواصل العمل المضني بغية أن يصوغ أول تشريع موحد للقانون الإقطاعي في اليابان ( ١٧٢٩ ) .

## الفصل الثالث

### العمال

نظام الطبقات - تجربة في تأمين الأراضى - تحديد الدولة للأجور -  
مجاة - الصناعات اليدوية - الصناع والتقابات

انقسمت الجماعة في العصر الإمبراطورى ثمانى طبقات ، ثم زالت بعض الفوارق في العهد الإقطاعى بحيث أصبحت تلك الطبقات أربعاً : الساموراي ( أى السيفون ) والصناع والفلاحون والتجار - والطبقة الأخيرة هى كذلك أخيرة في الترتيب الاجتماعى ، ويأتى تحت هذه الطبقات جمع غفير من العبيد فتبلغ نسبتهم ما يقرب من خمسة في كل مائة من السكان ، وقوامهم المجرمون وأسرى الحرب والأطفال المخطوفون الذين باعهم خاطفهم ، وكذلك الأطفال الذين باعهم آباؤهم عبيداً في الأسواق(\*) (٣٠) ويأتى دون هؤلاء العبيد أنفسهم في المنزلة الاجتماعية ، طبقة من المنبوذين يسمونهم « إيتا » ، يعدهم بوذيو اليابان منبوذين نجسين لأنهم يشتغلون بالحزارة أو بالدباغة أو بحمل القمامة (٣٢) .

والأكثريه العظمى من السكان ( الذين بلغ عددهم في أيام يوشيمونى عدداً يقرب من ثلاثين مليوناً ) كانت تتألف من صغار ملاك الأراضى الذين يزرعون أرضهم زراعة مركزة ، وهى مساحة تبلغ ثمن التربة اليابانية الجبلية التى تسمح للمحراث أن يشق جوفها(\*\*) ، وحدث في عصر « نارا » أن أمت الدولة الأراضى الزراعية ، وأجرتها للفلاحين مدى ست سنوات ، أو مدى حياة الفلاح على أكثر تقدير ؛ لكن الحكومة سرعان ما تبينت أن الناس

(٠) حرم هذا على الآباء سنة ١٦٩٩ (٣١)

(٠٠) الأجزاء القليلة الصالحة للزراعة كانت - ولا تزال - تسد بالفضلات البشرية .

لم يعنهم أن يصلحوا الأرض أو أن يحرسوا عليها حرصاً حقيقياً ما دام مز-  
الجائز أن توول إلى سواهم بعد حين قصير ، وانتهت التجربة بالعودة إلى  
الملكية الخاصة ، مع مد الحكومة الفلاحين بالمال في فصل الربيع ليتمكن  
الفلاحون من سد نفقات البذر والحصاد<sup>(٣٣)</sup> ، ومع هذه المعونة المالية لم تكن  
حياة الفلاح على درجة من اليسر تحلل قواه ، فلا تزيد مزرعته على شريحة  
ضئيلة من الأرض ، لأن الميل المربع - حتى في ذلك العهد الإقطاعي - كان  
مورد رزق لألفي رجل<sup>(٣٤)</sup> وكان على الفلاح أن يسخر في عمل للدولة مدى  
ثلاثين يوماً كل عام ، كان من الجائز خلالها أن يلاقى حتفه بطعنة رمح عقاباً له  
على لحظة واحدة تراخى فيها عن العمل<sup>(\*) (٣٥)</sup> وكانت تفتضيه الحكومة ستة  
في المائة من محصوله ضريبة وغيرها من القروض ، كان ذلك في القرن السابع ،  
أما في القرن الثاني عشر ، فكانت تفتضيه سبعة في المائة ، وأربعين في المائة  
في القرن التاسع عشر<sup>(٣٦)</sup> ، وكانت آلاته الزراعية غاية في بساطتها ، وثيابه  
هلاهيل خفيفة في الشتاء ، وهو في العادة لا يلبس شيئاً قط في الصيف ، وكل  
أساسه في المنزل قدر للأرز وقليل من الأقداح وبضعة ملاعق خشبية ، وداره  
من الضالة بحيث يكفي نصف أسبوع لبنائها<sup>(٣٨)</sup> ذلك لأن الزلازل تحطم  
له كوخه حيناً بعد حين ، أو تقضى عليه المجاعة ، وإذا عمل أجيراً عند رجل  
آخر ، حددت له الحكومة - في عهد توكوجاوا - ما يستحق من أجر<sup>(٣٩)</sup>  
لكن تحديد الحكومة للأجور لم يمنع هبوطها هبوطاً فظيماً ؛ وتجد في كتاب  
لـ « هو كوكي » وهو من أشهر كتّاب الأدب الياباني - وصفاً لطائفة من الكوارث

---

( \* ) كان يسمح لهم خلال شهرى يوليو وأغسطس أن يقلبوا في الظهيرة من منتصف  
النهار إلى الساعة الرابعة ؛ وكانت الدولة تقوم على إطعام المبال المرضى ، وعليها كذلك أن  
تعد الأكتفان لمن يموت إبان السخنة<sup>(٣٦)</sup> .

اجتمعت كلها في الثمانية الأعوام - ما بين ١١٧٧ و ١١٨٥ - فزلزال ومجاعة وحريق كاد يأتي على كيوتو كلها(\*) ووصفه لما شاهده بعينه من مجاعة سنة ١١٨١ يعد مثلاً من أجل ما في النثر الياباني :

« حدث في أرجاء البلاد جميعاً أن غادر الناس أراضيهم بحثاً عن سواها ، أو نسوا ديارهم وذهبوا إلى التلال يتخذون في شعابها مسكناً ؛ ولهجت الألسنة بكل ضروب الدعاء ، وأدى الناس كل ألوان الشعائر الدينية التي لم تكن مألوفة في الأيام العادية ، إذ أعادوها من جديد ، كل ذلك فعلوه بغير ما جدوى . . . وأبدى سكان العاصمة استعدادهم لتضحية كل ما يملكون من نفائس من شتى الضروب ، نفيساً في إثر نفيس ( من أجل القوت ) لكن لم يأبه لتلك النفائس أحد عندئذ . . . واحتشد السائلون الإحسان جماعات على جوانب الطريق ، وامتلات آذاننا بأصوات أنينهم الباكي . . . كان الناس جميعاً يموتون من جوع ، وكلما تقدمت بنا الأيام ازددنا ياساً حتى لقد أشبهنا ما تروى عنه القصة من سملك البركة ؛ وانتهى الأمر حتى بأولئك الذين توحى سيامهم بالاحترام ، والذين يرتدون القبعات ويغطون الأقدام ، انتهى الأمر حتى بأولئك الناس إلى الإلحاف في سؤال الإحسان من باب إلى باب ، وكان يحدث أحياناً أن يأخذك العجب كيف يستطيع هؤلاء الذين بلغت بهم تعاسة الحال كل هذا الحد أن يمشوا على أقدامهم ، وإذ بك تراهم يسقطون أمام عينيك لإعياء ، فمات عدد لا يحصى من المجاعة ، وكانوا يلفظون أرواحهم بجوار أسوار الحدائق أو إلى جوانب الطرقات ؛ ولما كانت أجسادهم لا تجد من يزيلها من أماكنها ، فقد امتلأ الهواء بالرائحة النتنة ؛ حتى إذا ما أخذ التغير يطرأ

( \* ) اشبع ما شهدته اليابان في تاريخها من حرائق - وهي في تاريخها كثيرة - هي تلك التي محت ييدو ( طوكيو ) محواً تاماً سنة ١٦٥٧ ، وتضت حل مائة ألف نفس بشرية .

يظراً على أجسادهم ، نشأت مشاهد لا تستطيع العين أن تراها ... ومن لم يكن له كسب يشتري به القوت ، هدم دارد ليبيع أجزاءها في السوق ، وقيل إن الحمل يحمله الرجل بكل طاقته ، لم يكن ثمنه ليكفي سد رمقه يوماً واحداً ، والعجب أنك كنت ترى في هذا الحطام من أخشاب المنازل ، الذى كانوا يبيعونه وقوداً للنار ، قطعاً مزدانة في بعض أجزائها بالألوان أو بالفضة أو بطلاء الذهب .. وشيء آخر يستثير في النفس أشد أحزانها ، وهو أنه إذا كان ثمة رجل وامرأة يربط بينهما رباط الحب الشديد ، فالذى كان منهما أقوى حباً من الآخر ، وأعمق ولاء ، يموت قبل زميله ، وعلة ذلك أن الواحد منهما يؤثر غيره على نفسه ، فالذى يشتد حبه يقدم لمحبوبه - رجلاً كان أو امرأة - أى شيء يطلبه منه ، فكان الوالدون بطبيعة الحال يموتون قبل أبنائهم ؛ كذلك كنت ترى الرضع أحياناً عالقين بأثداء أمهاتهم ، لا يعرفون أن هؤلاء الأمهات قد فاقت أرواحهن ... وبلغ عدد الموتى في كيوتو الوسطى خلال الشهرين الرابع والخامس وحدهما ٤٢٣٠٠ من الأنفس البشرية « (٤٠) » ،

قارن هذه الفترة الفظيعة التى تخللت مجرى الزراعة ، بالصورة التى يقدمها لنا « كيمفر » ساطعة عن الصناعات اليدوية فى اليابان كما رآها فى كيوتو سنة ١٦٩١ .

« كيوتو هى المستودع العظيم الذى تخزن فيه كل المنسوجات والسلع اليابانية ، وهى المركز التجارى الرئيسى فى الإمبراطورية ؛ فتكاد لا يجد فى هذه العاصمة الكبرى منزلاً واحداً لا يصنع فيه شيء أو يباع شيء ؛ فالناس هاهنا يُصنّفون النحاس ويسكون النقود ويطبعون الكتب ويطرزون افخر المنسوجات بزهور الذهب والفضة . وهاهنا كذلك تصنع أحسن صنوف الصبغة وأندرها ، وأروع النقوش فناً ، وكل ضروب الآلات الموسيقية والصور والخزانات اليابانية ، وشتى الأشياء التى تصاغ من الذهب وغيره من المعادن ، وخصوصاً

الصلب ؛ مثال ذلك السيوف ذوات النصل القوى وغيرها من الأسلحة ؛ كل ذلك يصنع ها هنا صناعة بلغت غاية الكمال ، كما تصنع أفخر الأردية على خير طراز ، وكل صنوف اللعب ونماذج الحيوان التي تحرك رؤوسها من تلقاء نفسها وأشياء أخرى أكثر عدداً من أن يحصرها العدد في هذا المكان ؛ واختصاراً لست تستطيع أن تفكر في شيء مما لا تراه يصنع في كيوتو - وليس هنالك شيء مما يستورد من خارج البلاد - مهما بلغت دقة صناعته - مما لا تجد بين صناع العاصمة من يأخذ على نفسه أن يحاكيه ... إنه ليس في المنازل التي تقع في الشوارع الرئيسية لإقطة لا تعرض شيئاً للبيع ؛ ولم يسعني إلا العجب أنى لهؤلاء الناس الزبائن لشراء هذه المقادير الهائلة من البضائع ؟ « (٤١) .

لقد استوردت اليابان قبل ذلك بزمن طويل كل فنون الصين وصناعاتها ؛ وكما ترى اليابان اليوم قد بدأت تفوق معلمها من أهل الغرب في الاقتصاد والمقدرة على الإنتاج الآلي (٤٢) ، فكذلك حدث في أثناء حكومة توكوجاوا العسكرية ، إذ أخذ صناعاتها ينافسون ، بل وأحياناً يفوقون زملاءهم من أهل الصين وكورية الذين علموهم الصناعة ؛ وكانت معظم الصناعة تقوم بها الأسرة في الدار - كما كانت الحال في أوروبا في عصرها الوسيط - وكانت الأسرة تورث صناعاتها ومهارتها من الوالد إلى ولده ، وكثيراً ما أطلق على الأسرة اسم الصناعة التي كانت تقوم بها ؛ وكذلك - كما كانت الحالة أيضاً في أوروبا في عصرها الوسيط - تألفت نقابات كبرى ، لم يكن قوامها الصنفون الدنيا من الصناع بقدر ما كان قوامها السادة الذين كانوا يستغلون الصناع استغلالاً لا يعرف الرحمة ، وحددوا حق الالتحاق بهذه النقابات للأعضاء الجدد بقيود أسرفوا في ضيقها (٤٣) ؛ وكانت نقابة الصيارفة من أقوى النقابات ، الصيارفة الذين كانوا يقبلون الودائع والتحويلات المالية « والكمبيالات » ويقرضون القائمين على التجارة والصناعة والحكومة ؛ وما جاءت سنة ١٦٣٦

حتى كانوا يؤدون كل العمليات المالية الكبرى (٤٢) وأصبح التجار الأغنياء والممولون من أعلام أهل المدن ، وأخذوا ينظرون بعين الحسد إلى السلطة السياسية التي كانت مقصورة على السادة الإقطاعيين الذين أثاروا في صدورهم الشحنة باحتقارهم السعى وراء الذهب ؛ وأخذت الثروة التجارية تزداد شيئاً فشيئاً خلال عصر « توكوجاوا » حتى استطاعت آخر الأمر أن تتأزر مع المواهب الأمريكية والمدافع الأوروبية على تحطيم القشرة المتحجرة فوق اليابان القديمة .

## الفصل الرابع

### الشعب

قوام أجسادهم - عجاثن الزينة - للشباب - الطعام - آداب المعاملة -  
- سيك - - احتفال الشاي - احتفال الزهور - حب الطبيعة -  
الهدائق - المنازل

إن الشعب الذى يحتل أعلى مكانة فى العالم السياسى المعاصر يتألف من أفراد قصار القامة ، إذ يبلغ متوسط قامة الرجل منهم خمسة أقدام وثلاث بوصات ونصف البوصة ، ويبلغ متوسط قامة المرأة أربعة أقدام وعشر بوصات ونصف البوصة ؛ وقد جاءنا وصف لرجل هو من أعظم جنودهم ، أعنى « تامورامارو » ، بأنه « رجل جميل القوام إلى حد بعيد ... طوله خمس أقدام وخمس بوصات »<sup>(٥٥)</sup> ويذهب بعض علماء التغذية إلى أن هذا القصر فى القامة يرجع إلى قلة الحير فى الغذاء اليابانى ، وهذه القلة بدورها راجعة إلى قلة اللبن ؛ وقلة اللبن سببها ارتفاع أثمان أراضى الرعى فى مثل هذه البلاد الغاصة بأهلها<sup>(٥٦)</sup> ، لكننا لا ينبغي أن نعد هذه النظرية أكثر من فرض بعيد الاحتمال - شأنها فى ذلك شأن كل ما يقال فى العلم الذى يحلل غذاء الإنسان ؛ ويبدو على النساء هناك ضعف وهزال ، فالظاهر أن ما هن من نشاط - وهن فى ذلك كالرجال فى نشاطهم هناك - يرجع إلى قوة الجهاز العصبى أكثر مما يرجع إلى القوة البدنية ؛ ولست ترى علائم النشاط بادية إلا إذا دعت إليه ضرورات الحياة ؛ ولهن جمال هو جمال التعبير الذى تنطق به وجوههن ، وجمال المشية ، وجمال القسمات ؛ فهذه الرشاقة اللطيفة التى تراها فيهن مثل جميل لما قد أدى إليه الفن فى بلادهن :

ومعاجين الزينة شائعة فى اليابان وقديمة العهد فيها ؛ كما هى الحال فى

سائر الأقطار . فترى الرجل منهم — حتى في العصر القديم الذي بسط فيه « كينوتو » زعامته على البلاد — ترى الرجل منهم إذا ما كان ذا منزلة اجتماعية ، يُحَمَّرُ وجنتيه ، ويضع المساحيق على وجهه ، ويعطر ثيابه ، ويحمل معه مرآة من ذهب (٤٧) ، وكذلك لبث نساؤهم قروناً طوالاً لا ترى وجوههن إلا مغطاة بالمساحيق ، وفي ذلك تقول « السيدة سي شرناجون » في كتابها : « صور على الوسادة » ( حوالى ٩٩٤ ميلادية ) مصطنعة الحشمة في قولها : « حَنَيْتُ رأسي فأخفيت وجهي بكمي ، مخاطرة في ذلك بما قد يحدثه الكم من إزالة المسحوق عن وجهي فيبدو مُبَقَّعاً » (٤٨) فقد كان سيدات البدع يحَمَّرُنَ خلودهن ويطلين أظفارهن . وَيُذَهِّبْنَ أحياناً سيقانهن السفلى ، فزينة المرأة في القرن السابع عشر لم تكمل بأقل من ستة عشر صنفاً ، وهي في القرن الثامن عشر قد بلغت العشرين صنفاً ؛ وعرف النساء خمسة عشر طرازاً لتصنيف الشعر الأمامي ، واثني عشر طرازاً للشعر الخلفي ، وكن يخلقن حواجبهن ، ويرسمن مكانها أهلةً أو غيرها من الرسوم ؛ أو كن يضعن بدل الحواجب نقطتين سوداوين صغيرتين في أعلى الجبهة ، لكي يحدثن بهما تناسقاً مع الأسنان التي كن يُسَوِّدْنَها صناعةً ، وكان تصنيف الشعر للمرأة عملاً يستغرق ساعتين إلى ست ساعات إن كان القائم بالتصنيف خبيراً بنفته ؛ وكان معظم الرجال في عصر « هاني » يخلقون مقدمات رءوسهم ، ويجمعون ما تبقى من الشعر صغيرة يمدونها وسط ذلك الجزء الأمامي الخلفي ، ليقسموه بها نصفين ، وكانت اللحي ضرورة للرجال ، رعم قلة شعراتها ؛ ومن لم يكن لهم لحي بطبيعتهم ، كانوا يضعون على وجوههم لحي صناعية ، وكان يقدم للضيف في بيوت العلوية ملقط يسوي به لحيته (٤٩)

كانت الثياب اليابانية في عصر « نارا » تقتني أثر الثياب الصينية فصدار و سراويل يغطيها ثوب محبوك على الجسم ، فلما جاء عصر « كينوتو » وسع اليابانيون من ذلك الثوب بعض الشيء وزادوا من أجزائه ، فالرجال والنساء

كانوا يلبسون أثواباً بعضها فوق بعض يراوح عددها من ثوبين إلى عشرين .  
وتختلف ألوان تلك الثياب باختلاف مكانة اللابس ، وكانت تبدو أطرافها  
عند الكم متعددة الألوان كأنها الطيف في تداخل ألوانه ؛ وجاء عهد كانت  
أكمام السيدة تتدلى إلى ما دون ركبتيها ، وفي طرفها جرس يُتَنَتِنُ وهي تسير ،  
وإذا كانت الطرقات مبتلة بالمطر أو بالثلج ، كن يمشين على قباقيب من  
الحشب محمولة على كعوب خشبية يرتفع حول بوصة عن الأرض ، وفي  
عصر «توكوجورا» بلغ الإسراف في الثياب حداً جعل «السيافين» لا يعبأون  
بتقاليد الناس ، ويحاولون الحد من هذا الإسراف بقوانين صارمة ، فحرق  
السر اويل المبطن بالحرير والموشاة كما حرق الجوارب التي كانت تزخرف  
على ذلك النحو ، وحرمت اللحى ، وصنوف معينة من تصفيف الشعر ،  
جاءت أيام كان رجال الشرطة فيها يؤمرون بالقبض على كل من يرونه  
في الطريق مرتدياً ثوباً فاخراً ، وكان الناس يطيعون هذه القوانين أحياناً ،  
لكنهم في معظم الأحيان كانوا يحتالون على التخلص منها بما عرف عن الإنسان  
من حماقة فطرية (٥٠) .

لكن هذا الشغف الشديد بتعدد الأردية قد خفت حدته على مر الزمن ،  
وأصبح اليابانيون من أكثر شعوب الأرض بساطة واحتشاماً وحسن ذوق .  
ولم يكن اليابانيون ليأخذوا عن سواهم من الشعوب شيئاً فيما يخص  
عادات النظافة ، فالثياب تغير ثلاث مرات في اليوم الواحد عند من يستطيع  
إلى ذلك سبيلاً ، والناس جميعاً فقيرهم وغنيهم يستحمون كل يوم (٥١) (\*) .  
وأما في القرى ، فكان الناس يستحمون في طسوت خارج منازلهم في

---

(\*) كان في طوكيو سنة ١٩٠٥ ألف ومائة حمام شمسي ، يستحم فيها كل يوم نصف  
ليون رجل ، لقاء أجر قيمته سنت وربع سنت (٥٢) .

الصيف ، ويثرثر الحار مع جاره إذ هما يستحمان ثرثرة لا تنقطع (٥٢) ، وكانوا يستحمون في الشتاء بماء ساخن مبلغ حرارته مائة وعشر درجات ، فيكون لهم ذلك وسيلة تدفئة من البرد ، وكان غذاؤهم بسيطاً وصحياً قبل أن تظفي عليهم موجة الترف ؛ ووصف الصينيون اليابانيين في الزمن القديم فقالوا عنهم إنهم « شعب طويل العمر ، حتى ليكثر فيه الأفراد الذين يبلغون في أعمارهم مائة عام » .

وكان الطعام الرئيسي عند الشعب هو الأرز ، يضيفون إليه السمك والخضر ونبات البحر والفاكهة واللحم ، كل بنسبة ثرائه ، وكان اللحم لونا من الطعام نادراً إلا بين الطبقة العالية وطبقة الجنود ، وكان العامل الياباني يفضل هذا الطعام الذي يتألف من أرز وسمك ولا لحم ، يتمتع برئتين سليمتين وعضلات قوية ، فيستطيع الجري من خمسين ميلاً إلى ثمانين في أربع وعشرين ساعة دون أن يشكو إعياء . فإذا ما أضاف اللحم إلى غذائه ، فقد قدرته هذه على الجري السريع (\*) وحاول الأباطرة في عصر كيوتو محاولة دينية قصدوا بها أن يؤيدوا قوانين التغذية كما تأخذ بها البوذية ، فحرموا ذبح الحيوان وأكله ، ولكن لما رأى الناس أن الكهنة أنفسهم كانوا يخرجون على تلك القوانين خفية ، أخذوا يدخلون اللحم لونا شياً من الطعام ، ويسرفون في أكله كلما مكنتهم من ذلك قدرتهم المالية (٥٧) .

فاليابانيون — كالصينيين والفرنسيين — يعدون إجادة الطهي علامة حوهرية للحضارة ، حتى اأخذ الطهارة — كأنهم في ذلك فنانون أو فلاسفة — ينقسمون مدارس يناهض بعضها بعضاً بما تبذع كل منها من « صفات » ؛

---

( • ) لكننا نلاحظ من جهة أخرى أن اليابانيين الذين لم يكونوا يعملون بأجسادهم ، وكانوا يعيشون على كميات كبيرة من الأرز ، كانوا يمرضون لاضطرابات في المضم (٥٦) .

وأصبحت آداب المائدة عندهم من الأهمية بحيث عادلته أهمية الدين على أقل تقدير ، إذ كان لهم قواعد دقيقة تنظم ترتيب القضبات ومقاديرها ، كما تنظم وضع الجسم في كل مرحلة من مراحل الوجبة ، ولم يكن يجوز للسيدات أن تحدثن صوتاً في الطعام أو الشراب ، أما الرجال فقد كانت تقتضيهم الأوضاع أن يدلوا على تقديرهم لكرم المضيف بحشاشات عدة يظهر بها عرفانهم بالجميل (٥٨) ، وكان الآكلون يجلسون على عقب واحد أو على العقبين فوق حصير ، إزاء مائدة لا تعلو عن الأرض أكثر من بضع بوصات ، أو قد يوضع الطعام على الحصير بغير حاجة إلى مائدة على الإطلاق ، والعادة أن تبدأ الوجبة بشراب ساخن من عصير الأرز ، ألم يعلن الشاعر « تاهيتو » في زمن بالغ في القدم مبلغ القرن السابع ، بأن شراب « الساكي » هو الحل الوحيد الذي تفض به مشكلات الحياة جميعاً ؟

إن ما كان ينشده السبعة الحكماء  
أولئك الرجال الذين قدم بهم الزمان  
هو - بغير شك - شراب « الساكي »  
فدل أن تجلس ساكناً  
مفكراً ، جاداً ، صنناً  
فخير ألف مرة أن تشرب « الساكي »  
وأن تسكر به حتى تصيح صياحاً عالياً  
فما دام الواقع الحق ،  
هو أن الموت لاحق بنا جميعاً  
فلنمرح

ما دمنا على قيد الحياة  
إن اللؤلؤة التي تتألق بزريقها في الليل

أقل قيمة للإنسان من نشوة قلبه

التي تأتيه إذا ما شرب « الساكي » (٥٩)

مكن الشاي كان أكثر قدسية عند العلية من « الساكي » . فهذا النبات العجيب الذي تغلب به على ما يفقده الماء من طعمه بعد الغلي ، جاء إلى اليابان قادماً من الصين سنة ٨٠٥ ، لكنه إذ ذاك لم يصب نجاحاً ، ثم جاءها مرة أخرى سنة ١١٩١ حيث استقر بها وأقام ، فقد اجتنبه الناس أول الأمر باعتبارهم سما لا ينبغي أن يقربوه ؛ ولكن لما تبين للرجل من طائفة « السيفين » أن قليلاً من أقداح الشاي سرعان ما يرد إلى رأسه اترانه بعد ما أصابه من دوار بسبب الإفراط في شراب « الساكي » ليلة البارحة ، أخذ أهل اليابان يقيمون فائدة الشاي ، ولقد أضاف ارتفاع ثمنه إلى سحره سحراً جديداً ، فكان الناس يتهدون به ثمين الهدايا ، بأن يتبادلوا الآنية الخزفية المليئة به ، حتى لقد كان يُقدّمُ للمقاتلين جزاء ما أبلوا في أفعالهم الحربية الباسلة ، فكان الذي يجود من هؤلاء بحيث يظفر بمنحة من الشاي ، يجمع حوله الأصدقاء لشاركوه هذا الشراب الملكي ، ولقد جعل اليابانيون من شرب الشاي احتفالاً رشيقياً معقد الأوضاع ، إذ وضع « ركيو » لذلك ست قواعد لا يجوز الخروج عليها ، فارتفع شرب الشاي بفضل هذه القواعد الست إلى منزلة الطقوس الدينية ، فن قواعد « ركيو » هذا أن الدعوة التي توجه إلى الأضياف ليدخلوا قاعة الشاي ، يجب أن تكون بالتصفيق بخشبتين معينتين كما يجب أن يظل إناء الضوء مليئاً بالماء الصافي ، وإذا ما أحس ضيف من الأضياف بخطأ أو بنقص في أثاث المكان ، وجب عليه أن يغادر من فوره دون أن يحدث بذلك ضجة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ولا يجوز أن يغوص الحاضرون في حديث تافه ، بل يجب عليهم ألا يطرُقوا بالحديث إلا أموراً عالية جادة ، ولا يجوز لأحد أن يفوه بكلمة واحدة مما يدل على غرور أو رياء ، ثم لا يصح أن يستغرق الأمر أكثر من أربع ساعات ،

ولم يكن يستعمل لإبريق الشاي في مثل هذه المحافل التي يطلق عليها « شا-نو-يو » ( ومعناها ماء ساخن للشاي ) ؛ بل كان يوضع مسحوق الشاي في فنجان ممتاز في نوعه ، ثم يصب فيه الماء الساخن ، ثم يدور الفنجان بين الأضياف واحداً بعد واحد ، كل منهم يسمح بحافته مسحاً رقيقاً بمنشفة صغيرة ، حتى إذا ما شرب آخر الشاربين آخر جرعة من الفنجان ، أدير الفنجان بين الحاضرين من جديد ليفحصوه من الوجهة الفنية<sup>(٦٠)</sup> ، وعلى هذا النحو كان احتفال الشاي حافظاً للخزافين على إنتاج أقداح وآنية بالغة الجمال ، كما كان هذا الاحتفال عاملاً على صياغة آداب اليابانيين في صورتها الهادئة الفاتنة التي يراعى فيها تبادل الاحترام<sup>(\*)</sup> .

كذلك أصبحت الزهور موضع قدسية في اليابان ؛ فكانت موضع تقدير من « ركيو » هذا الذي صاغ طقوس محافل الشاي ، فكانت الزهور عنده تلتقى من العناية ما تلقاه أقداح الشاي ، ولما سمع أن « هيدبوشي » آت لزيارته ليرى مجموعته المشهورة من زهور الأقحوان ، أتى « ركيو » على كل الزهور في بستانه إلا واحدة ، لعل هذه الواحدة تسطع في عيني هذا « السيف » الخفيف سطوعاً يدرك منه أنها فذة في عالم الزهور<sup>(\*\*)(٦٢)</sup> ؛ وأخذ فن تنسيق الزهور يتقدم خطوة بعد خطوة مع « شرعة الشاي » في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، حتى إذا ما جاء القرن السابع عشر ، أصبح موضعاً للاهتمام في حد ذاته ، ونشأت طائفة « أساتذة الزهور » تعلم الرجال والنساء

---

(\*) محصول الشاي هو الآن بالطبع أحد منتجات اليابان الهامة . ويظهر أن الشركة الهولندية الشرقية هي التي جاءت إلى أوروبا بأول ما عرفته من الشاي سنة ١٦١٠ ، وقد باعته حينئذ بواقع أربعائة ريال تقريباً للرطل الواحد ، وقد قال « جوناس هانواي » سنة ١٧٥٦ إن الرجال في أوروبا يفقدون من طول قامتهم والنساء فيها يفقدون من جاهلن ، بفعل شرب الشاي ، وكان دعاة الإصلاح يحاربون هذه المادة بوصفهم إياها بالهمجية القذرة<sup>(٦١)</sup> .

(\*\*) هذا « الحاكم العظيم » وهذا « العلم في عالم الشاي » قد تجابا كما يتحاب الرجلان المقريان ، وقد أتهم أولهما الثاني بتهمة الحيانة ، لكنه بدوره أتهم بإنصاف ابنة الثاني ( ركيو ) وأخيراً انتحر « ركيو » على طريقة هاراكري<sup>(٦٣)</sup> .

كيف ينبتون الزهور في البستان وكيف ينسقونها في دورهم ، فكان هؤلاء الأساتذة يقولون إنه لا يكفي أن تعجب بالزهور نفسها ، بل يجب أن تدرب نفسك على رؤية الجمال في ورقة الزهور وفي غصنها وفي عودها كما ترى الجمال في الزهرة نفسها ، وأن تدرب نفسك على رؤية الجمال في زهرة واحدة كما تراه في ألف زهرة ، وأن ترص الزهر رصاً لا يقوم على أساس اللون وحده ، بل كذلك مع أساس طريقة ضمها في طاقات وصفها<sup>(٦٤)</sup> ؛ وهكذا أصبح الشاي والزهور والشعر والرقص من لوازم الأنوثة بين بنات العلية في اليابان .

الزهور عند اليابانيين بمثابة الدين ، فهم يعبدونها عبادة تشيع فيها روح التضحية بالقرابين ، ويلتقي فيها أفراد الشعب جميعاً ؛ وهم يرقبون في كل فصل من فصول العام ما يلائمه من زهور ؛ فإذا ما أزهرت شجرة الكريز مدى أسبوع أو أسبوعين في أوائل شهر إبريل ، ينخيل إليك أن أهل اليابان جميعاً قد تركوا أعمالهم ليحججوا فيها بأبصارهم ؛ بل إنهم ليحججون إلى الأماكن التي تزخر بهذه المعجزة ويكمل فيها إزهار هذا الضرب من الشجر<sup>(\*)</sup> ؛ فهم لا يزرعون شجرة الكريز لثمارها ، بل لأزهارها - وزهرتها رمز للمحارب المخلص الذي يستعد للموت في سبيل وطنه في اللحظة التي تصل فيها حياته أوج شبابه<sup>(٦٥)</sup> ؛ وقد يحدث أن يطلب المجرمون المساقون إلى الإعدام زهرة من زهرات الكريز وهم في طريقهم إلى الموت<sup>(٦٦)</sup> ، وتروى لنا « السيدة تشيو » في قصيدة لها مشهورة ، أن فتاة قصبت بئراً تستخرج منه الماء ، فلما وجدت الدلو والحبل ملتقاً عليهما أغصان النبات اللبلابي ، قصدت مكاناً آخر تحصل منه على الماء ، مؤثرة ذلك على قطع أسلاك النبات<sup>(٦٧)</sup> ، ويقول « تسورا يوكي » « إنه ليستحيل عليك أن تفهم قلب الإنسان ، لكن الزهور في قررتي ما تزال كسابق عهدها تنفث عبقتها<sup>(٦٨)</sup> ، هذه العبارة الساذجة هي من أعظم الشعر

(\*) هم كذلك يحججون إلى حيث يشاهدون أوراق الأسفندان تتحول إلى السقوط .

الياباني ، لأنها تعبر عن خصيصة عميقة لجنس بشرى بأسره : تعبر عنها تعبيراً كاملاً يتعذر أن تحذف منه شيئاً ، كما تعبر عن نتيجة صادقة من نتائج الفلسفة ، إنك لن تجد بين أمم العالم أمة أحبت الطبيعة بمثل ما أحبا اليابانيون ولن تجد الناس في أى جزء من أجزاء الأرض غير اليابان يتقبلون راضين تقنيات الطبيعة كما تبدى في الأرض والسماء والبحر ، ولن تجد بلداً آخر غير اليابان عنى فيه الناس بزراعة البساتين ، أو بتغذية النبات إبان نموه ، أو خصوه برعايتهم في دورهم ، إن اليابان لم تنتظر حتى يجيئها « روسو » أو « وردزورث » لينبئها أن الجبال شوامخ أو أن البحيرات قد يكون لها روعة الجمال ، فتكاد لا تجد في اليابان منزلاً بغير أصيص لازهور ، كما توشك ألا تجد قصيدة واحدة في الأدب الياباني تخلو من وصف مشاهد الطبيعة في ثنايا سطورها ؛ فكما أن « أوسكار وايلد » كان من رأيه أن انجلترا لا ينبغي لها أن تحارب فرنسا لأن الفرنسيين يكتبون نثرأً بلغ في فنه حد الكمال ، فكذلك نقول أن أمريكا يجب أن تنشُد السلام إلى آخر جهدها مع أمة تتعطش للجمال في عاطفة جارفة تكاد تبلغ في حدتها قوة نهمها إزاء السلطان .

إن فن غرس الحدائق قد جاءها من الصين جنباً إلى جنب مع البوذية والشاى ؛ لكن ها هنا ترى اليابانيين مرة أخرى يحولون بقوة إبداعهم ما قد تشربوه من غيرهم عن طريق المحاكاة ، فتراهم يستملحون جمال الشىء إذا خلا من الاتساق . ويستجملون الأشكال المبتكرة التي لم يقتلها التكرار ، فتجىء للرأى بمثابة المفاجأة ، وهم يقصرون الأشجار والشجيرات بأن يحصروا جذورها في أضص ، وتدفعهم في ذلك فكاهة شيطانية وصب عارم إلى أن يروضوا تلك الأشجار بحيث يصوغونها في أشكال يجوز لنا ، إذا ما رأيناها تكون سور البستان - أن نقول عنها إنها تمثل أشجار اليابان التي عصفت بها عواصف تلك البلاد فلوت أفنانها ، وتراهم يبحثون في فوهات براكينهم وفي أوعر شطآنهم لعلهم واجدون صخوراً امتزجت بالمعادن بفعل

النيران الداخلية ، أو صاغها حجّارون صابرون في أشكال غريبة ملتوية الأجزاء ، وهم يحفرون البحيرات الصغيرة ، ويشقون النهرات الفواردة بمائها ، ويصلون ضفافها بجسور تبدو للرأى كأنما جاءت نمواً طبيعياً في أشجار الغابات ، وهم يدقون خلال هذه التكوينات المختلفة كلها مماش ينقشونها نقشاً دقيقاً ، فتهدى بك تارة إلى جديد يفجؤك ، وطوراً إلى ركن هادئ بليل الهواء .

وحيث تسعفهم فسحة الأرض وكثرة المال تراهم أميل إلى أن يجعلوا بيوتهم جزءاً من حدائقهم ، منهم إلى أن يجعلوا حدائقهم جزءاً من بيوتهم ، ومنازلهم هزيلة البنيان لكنها حميلة ؛ فلئن جعلت الزلازل الأبنية العالية خطراً -اهماً ، فقد عرف النجار وقاطع الخشب كيف يربط ألواح الخشب وشرائحه وسمده فيجعل منها مسكناً تبلغ بساطته حد التقشف . لكن يبلغ جماله حد الكمال بحيث تراه في فن عمارته نسيج وحده ، إنك لا ترى في مثل هذا المسكن ستائر أو أرائك أو أسرة أو مناخذ أو مقاعد ، ولا ترى دلائل بارزة تدل على ثروة الساكن ورفاهيته ، لا ترى متحفاً للصور ولا التماثيل ولا التحف ؛ لكنك ترى في ركن من الحديقة غصناً مزهراً ، وعلى الحائط صورة من الحرير أو الورق ، أو ترى قطعة من الخط الزخرفي ، وتجد على الأرض المغطاة بالحصير وسادة وضع أمامها كرسي مما تسند عليه الكتب للقراءة ، وعلى أحد جانبيها خزانة كتب وعلى جانبها الآخر مسندة ، وهم يخفون الحشايا والأغطية في خزانة خشبية ، ليخرجوها وينشروها على الأرض إذا حان وقت النوم ، ففي مثل هذه الأحياء المتواضعة ، أو في كوخ الفلاح الهزيل كانت تسكن الأسرة اليابانية ، وتبقى على الحياة وعلى المدنية في « الجزر المقدسة » خلال ما تعاور البلاد من زعازع الحروب والثورات ومن فساد سياسي وكفاح في سبيل الدين .

## الفصل الخامس

### الأسرة

الأب المستبد - منزلة المرأة - الأبناء -  
الأخلاق الجنسية - ال « جيشا » - الحب

الأسرة هي المصدر الحقيقي للنظام الاجتماعي ، ولئن كان هذا صحيحاً بالنسبة للغرب ، فهو أصح بالنسبة للشرق ، وجمع السلطة كلها في يد الأب في اليابان - كما هي الحال في سائر أنحاء الشرق - لا يدل على انحطاط في درجة الرقي الاجتماعي ، بل يدل على إيثارهم للحكومة الأسرية على الحكومة السياسية ، فليس للفرد من الأهمية في الشرق بمقدار ما له من الأهمية في الغرب ، وذلك لأن الدولة في الشرق كانت أضعف منها في الغرب ، ولذا تطلبت الدولة أن يكون إلى جانبها أسرة قوية النظام شديدة الطاعة لتقوم مقام السلطة المركزية التي تشمل بسلطاتها شتى نواحي الحياة كبيرها وصغيرها على السواء ؛ وقد فهمت الحرية في الشرق بالنسبة للأسرة لا بالنسبة للفرد ، ذلك لأنه لما كانت الأسرة هي وحدة الإنتاج في عالم الاقتصاد كما كانت وحدة النظام الاجتماعي ، كان النجاح أو الفشل ، بل الحياة أو الموت ، لا يخص الفرد الواحد بل يصيب الأسرة كلها ؛ فكانت سلطة الوالد استبدادية ، لكنها رغم استبدادها كانت تشوبها الرأفة التي لا يعقبها شيء من الضرر ؛ وذلك بكونها تبديت للناس أمراً طبيعياً وضرورياً وإنسانياً ؛ فقد كان من حقه أن يطرد من الأسرة زوج ابنته أو زوجة ابنه بينما يحتفظ بحفدته في صحبته ؛ بل كان من حقه أن يقتل ابنه أو ابنته إذا اتهم أحدهما بالدعارة أو غيرها من الجرائم الخطيرة ، وأن يبيع أبناءه أو بناته في سوق النخاسة

أو سوق الدعارة(\*) وفي مستطاعه أن يطلق زوجته بكلمة واحدة(٧٠) فإذا ما كان الرجل من عامة الشعب ، كان الأغلب أن يقتصر على زوجة واحدة ، أما إذا كان من أبناء الطبقة العليا فقد كان من حقه أن يحيط نفسه بالخليلات ؛ ولم يكن أحد ليهتم بما يقترفه من خيانة زوجية آنأ بعد آن(٧١) ؛ ولما دخلت المسيحية بلاد اليابان ، شكوا الكتاب من أدل البلاد مما أحدثته من اضطراب في هدوء الحياة العائلية ، بتعاليمها التي تجعل اتخاذ الخليلات واقتراف الزنا من الخطايا(٧٢) .

وكانت منزلة المرأة في اليابان - كما هي الحال في الصين - أعلى في مراحل المدنية الأولى منها في المراحل المتأخرة ، ، فترى ست نساء بين حكام البلاد إبان العهد الإمبراطوري ، ولعبت المرأة في كيوتو دوراً هاماً ، بل لعبت الدور الأول في حياة الأمة الاجتماعية والأدبية ؛ وفي ذلك العهد الذهبي للثقافة اليابانية - لو جاز لنا أن نجازف بالرأى في مثل هذه النواحي الغامضة - سبق الزوجات أزواجهن في عالم الزنا ، بحيث كن يعن العفة بقول جميل يقال(٧٣) وتصف لنا « السيدة سى شوناجون » شاباً على وشك أن يرسل رسالة غرامية لخليلته ، فقطعها ليغازل فتاة عابرة ؛ ثم تضيف تلك الكاتبة المحبوبة البارعة في أدب المقالة ، قولها : « ولست أدري إن كان الرسول الذي حمل رسالة هذا الحب معطرة بقطرات الندى انتثرت من الزهور العبقرة ، قد تردد في تقديمها إلى الحبيبة ، إذ وجدها هي بدورها تستضيف عشيقاً »(٧٤) ؛ ثم انتشرت نظرية أهل الصين في إخضاع المرأة للرجل ، حين انتشر النظام الإقطاعي الحربي ، وحين تناوب البلاد تهاون وشدة جعلتا يتعاقبان على نحو طبيعي يسجله التاريخ ؛ فأصبح المجتمع يسوده الذكور ، وأذعن النساء « للطاعات الثلاث » - الولد والزوج والابن ؛ - وأوشك الناس ألا يضيعوا جهودهم في تعليم النساء ، اللهم إلا تعليمهن آداب الأوضاع الاجتماعية ؛ وطولب النساء بالأمانة الزوجية يتهدهن في ذلك عقاب الإعدام ؛ فإذا وجد

(\*) لم يكن يقع هذا إلا في أحط الطبقات وعند الضرورة القصوى (٦٩)

الزوج زوجته متلبسة بجرمة الزنا ، كان من حقه ان يقتلها مع عشيقها نوراً ؛ وقد أضاف « ايباسو » بدقته إلى هذا الحق شرطاً ، فقال إن الزوج إذا قتل المرأة في مثل هذه الحال وأخلى سبيل الرجل ، حتى عليه هو نفسه عقاب الموت (٧٦) ؛ وقد نصح الفيلسوف « لاكن » للزوج أن يطلق زوجته إذا ما أسرفت في حديثها من حيث ارتفاع الصوت ، أو طول الكلام ؛ أما إذا حدث أن كان الزوج منحل الخلق وحشى الطبع ، فينبغي للزوجة - في رأى « لاكن » - أن تضاعف له الرحمة والدعة ؛ وفي ظل هذا التدريب الشديد المتصل ، أصبحت المرأة اليابانية أنشط الزوجات وأخلصهن وأكثرهن طاعة ؛ وإن الرحالة الذين أخذهم العجب لهذا النظام الذى أنتج مثل هذه النتائج الحميدة ، ليتساءلون إن كان من الحكمة أن ندخله في بلاد الغرب (٧٧) .

ولم تكن كثرة النسل تجد تشجيعاً في اليابان « السامورية » (\*) على خلاف ما نراه في أقدم عادات المجتمع الشرقى وأكثرها قديمة ؛ وذلك لأنه لما تكاثر السكان أحست الجزر الصغيرة أنها قد ازدحمت بأهلها ، وأصبح من عوامل السمعة الحسنة للرجل من طائفة « السيفين » ألا يتزوج قبل سن الثلاثين ، وألا ينجب من الأطفال أكثر من اثنين (٧٨) ؛ ومع ذلك فقد كان ينتظر من كل رجل أن يتزوج وأن ينسل الأبناء ، فإذا تبين العقم في زوجته ، كان من حقه طلاقها ؛ وإن نسلت له بنات ولا أبناء ، نصحوه بأن يتبنى ولداً حتى لا يضيع اسمه وتبدد أملاكه ، لأن البنات ليس من حقهن أن يرثن شيئاً (٧٩) . كان الأطفال يربون على أساس الفضائل الصينية ، وفي جو من الأدب الذى يبيث إخلاص البنوة ، لأن انتظام الدولة وأمنها كانا يعتمدان على هذه الطاعة التى تُبعث فى الأبناء والتى تكون معيناً للنظام فى الأسرة ، وقد أمرت

(\*) الساموار « السيف » ، واليابان السامورية ، هى اليابان فى العهد الذى ساد

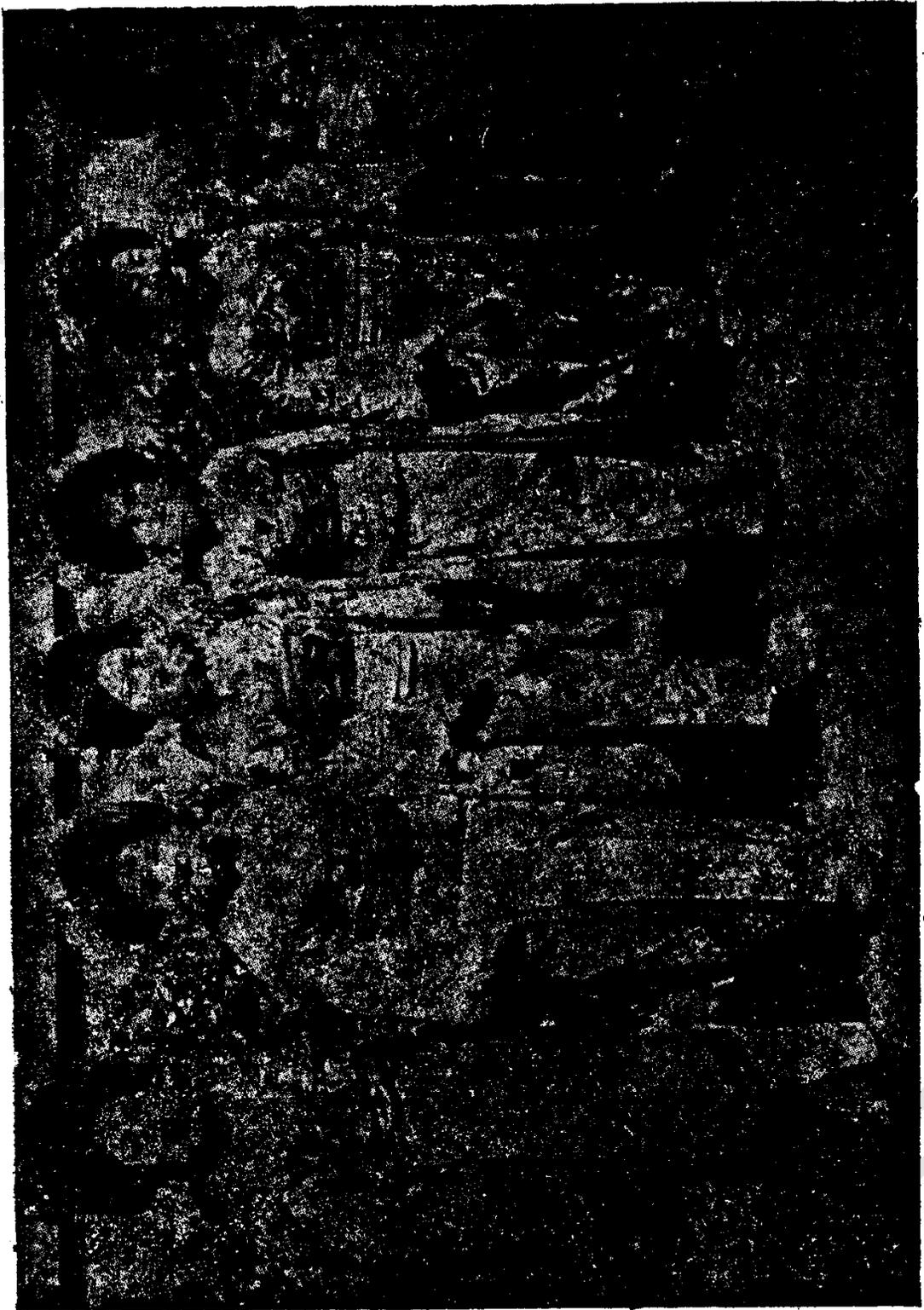
فيه السيفور . (المغرب)

الإمبراطورة « كوكن » - في القرن الثامن - كل أسرة يابانية أن تحصل لنفسها على نسخة من متن الطاعة المفروضة على الأبناء للآباء ؛ وكان يطلب إلى كل تلميذ في مدارس الأقاليم أو في الجامعات أن يتقن دراسة هذا الكتاب إتقاناً تاماً ؛ ولو استثنيت طائفة السيفين الذين كانت واجبات الطاعة عندهم مفروضة أولاً لسادتهم ؛ إذا استثنيت هؤلاء ، وجدت طاعة الأبناء لآبائهم هي الفضيلة الأساسية العليا عند اليابانيين ؛ بل إن علاقة الياباني بالإمبراطور ، كانت علاقة الحب والطاعة من ولد إلى والده ؛ ولبثت هذه هي الفضيلة الرئيسية في التشريع الخلقى كله تقريباً عند عامة الناس في اليابان ، حتى جاءهم الغرب بأفكاره الثورية التي تنادى بحرية الأفراد ؛ وكان يستحيل على الخزر اليابانية أن تتحول إلى المسيحية ، بسبب ما ورد في الإنجيل من أمر للرجل بأن يترك أباه وأمه ليلصق بزوجته (٨٠).

لم تكن الفضائل الأخرى - فيما عدا الطاعة والولاء - لتحتل بينهم مثل المكانة التي تحتلها في أوروبا المعاصرة ؛ فالعفة كانت فضيلة مرغوباً فيها ، حتى لقد قتل بعض نساء الطبقة العليا أنفسهن حين تعرضت بكارتهن للخطر (٨١) ، لكن كبرياء واحدة لم يكن معناها عندهم القضاء على المرأة قضاء كاملاً ؛ وأشهر القصص اليابانية ، وهي قصة « جنجي مونوجاناري » هي عبارة عن ملحمة تروى قصة غواية في الطبقة العليا ؛ وأشهر مقالات في الأدب الياباني وهي المجموعة في كتاب « صور على الوسادة » لكاتبته « السيدة سي شوناجون » تراها في بعض المواضع كأنما أريد بها أن تكون رسالة في الأوضاع الصحيحة التي ينبغي مراعاتها عند اقتراء الحطية (٨٢) ، فقد نظر القوم إلى شهوات الجسد نظرتهم إلى أمر طبيعي كما ينظرون إلى الجوع والظمأ ؛ فترى آلاف الرجال - وكثير منهم أزواج محترمون - يحتشدون ليلاً في « يوشى وارا » ، ( أى حى الزهر ) في طوكيو ؛ ففي ذلك الحى منازل خرجت على النظام ، يسكنها خمسة عشر ألف امرأة زانية رخصهن بالزنا ومهرن فيه ، تراهن في الليل

جالسات وراء « شيش » نوافذهن ، فاخترت الثياب بيضاوات بما وضعنه على أجسادهن من مساحيق ، مستعدات للغناء والرقص والدعارة لمن ليس له امرأة عشيرة من الرجال ، أو لمن ساءت عشيرته منهم (٨٣) .

وأعلى هؤلاء الزانيات ثقافة هن فتيات « الجيشا » الذى يدل اسمهن هذا على أنهن بارعات فى فنهن ( فكله جيشا مكونة من مقطعين : « جى » ومعناها بارع فى الأداء الفنى ، و « شا » ومعناها شخص ) وهن شبيهات بطائفة « الغوانى » فى اليونان ، فى أنهن قد أثرن فى الأدب كما أثرن فى عالم الحب ، ومزجن فوضاهن الخلقية بالشعر ، لكن حدث أن أمر الحاكم العسكرى « أينارى » ( ١٧٨٧ - ١٨٣٦ ) عام ١٧٩١ بتحريم الاستحمام الذى يخلط الجنسين معاً ، لأنه أحياناً يؤدى إلى الخروج على قواعد الأخلاق (٨٤) ، ثم أصدر أمراً شديداً سنة ١٨٢٢ يقاوم به فتيات « الجيشا » وقد وصف الواحدة منهن بأنها « مغنية تلبس فاخر الثياب ، وتعرض نفسها مأجورة لتسلية رواد المطاعم ، بالرقص والغناء فى ظاهر الأمر ، لكنها فى الحقيقة تمارس شيئاً يختلف عن هذين كل الاختلاف » (٨٥) ؛ ومنذ ذلك التاريخ عدّ هؤلاء النساء بين « الزانيات اللاتى لا يقعن تحت الحصر » بحيث كن فى عهد « كيمفر » يملأن جوانيت الشاى فى القرى ، كما يملأن الفنادق أينما وجدتها على طول الطريق (٨٦) ومع ذلك فقد لبثت الحفلات والعائلات تدعو فتيات « الجيشا » ليقمن بالتسلية فى الاجتماعات ؛ وفتحت مدارس تتلقى فيها فتيات « الجيشا » الناشئات على أيدي « الجيشا » القديمات مختلف أوضاع الفن ؛ وكان يحدث أحياناً أن يجتمع المعلمات والمتعلمات معاً فى حفلات الشاى ، ليقمن بعرض الجانب المحتشم من ألون ما يعرفنه من فنون ؛ والآباء الذين يتعذر عليهم أحياناً أن يعولوا بناتهم ، كانوا يوافقون بمحض اختيارهم على تدريب بناتهم فى فنون « الجيشا » لعل ذلك يكون ورد كسب لهن ؛ وما أكثر القصص اليابانية التى تروى عن بنات أسلمن أنفسهن لهذه الحرفة إنقاذاً لأسراتهن من أنياب الجوع (٨٧) .



إن هذه العادات - مهما بلغت من غرابة تفزع لها فزعاً - لا تختلف في جوهرها عن عادات الغرب ونظمه الاجتماعية ، اللهم إلا في الصراحة والتهذيب ولطف الأداء ؛ وإنه ليقال لنا على سبيل التأكيد أن الأغلبية الكبرى من فتيان اليابان ، لم تزل عفيفة كعذراوات الغرب سواء بسواء (٨٨) ؛ فعلى الرغم من هذه النظم الصريحة ، ترى اليابانيين يحيون حياة لا بأس بها من حيث النظام والاحتشام ؛ وعلى الرغم من أنهم كثيراً ما كانوا يابون الجرى مع دوافع الحب في عقد الزواج الدائم مدى الحياة ، فقد كان في وسعهم أن يظهروا أرق العواطف إلى نحو ما يميلون إليه من أشياء ، فما أكثر الأمثلة التي نصادفها في حوادث التاريخ ، وفي الوقائع الخيالية التي وردت في الأدب الياباني ، التي تدل على أن الشبان والشابات قد قتلوا أنفسهم آملين أن يتمتعوا في الآخرة الأبدية بالاتصال الذي حرمه عليهم آباؤهم على هذه الأرض (٨٩) ؛ وليس الحب هو الموضوع الرئيسي في الشعر الياباني ؛ لكنك مع ذلك تسمع نغماته هنا وهناك بسيطة مخلصمة عميقة على نحو لا يضارعها فيه أدب آخر :

آه ، تحولت الأمواج البيض على مدى البصر ،

بما أراه طافياً على بحر « آيسو »

زهرات

أجمعها طاقة

أقدمها هدية لحبيبتى (٩٠)

ثم اسمع « تسورا يوكي » العظم يحكى قصة حبه المرفوض في أربعة

أسطر ، مزج فيها الطبيعة بشعوره مزجاً يميز الأدب الياباني :

أنقول ألا شيء وشيك الزوال

مثل زهرة الكريز ؟ ... لكنى أذكر لحظة

ذبلت فيها زهرة الحياة بكلمة واحدة

ولم تعد تتحرك من الريح هبة (٩١)

## الفصل السادس

### القديسون

الدين في اليابان - تحول البوذية - الكهنة - الشداك

إن شعور الولاء الذي يعلن عن نفسه في الوطنية وفي الحب وفي حب والدينا وحب الأبناء وحب الخليل وحب الوطن ، هو نفسه الشعور الذي لا بد أن يلتمس في الكون باعتباره كلا واحداً ، قوة رئيسية يتوجه إليها بالولاء ، ويستمد منها شيئاً من القيمة والمعنى اللذين يكونان أوسع نطاقاً من حدود الشخص الواحد ، وأدوم بقاء من حدود عمر واحد ؛ ولئن كان اليابانيون على درجة من الاعتدال في تدينهم - فهم ليسوا كالهندوس في عمق إيمانهم الديني وشدة انغماسهم في ذلك الدين ، كلا ولا هم يشبهون قديسي الكاثوليكية في العصور الوسطى في حدة عاطفتهم الدينية وتهوسهم في عقيدتهم حتى بلغوا في ذلك حد تعذيب أنفسهم ، وقل ذلك عن رجال الإصلاح الديني المتنازعين ، لم يكن اليابانيون مثل هؤلاء ولا هؤلاء ، ومع ذلك فقد أخلصوا إخلاصاً ظاهراً للتقوى وللصلاة والفلسفة التي تنتهي بهم إلى التفاؤل ، حتى لقد تميزوا بذلك من بني عمومهم المتشككين الذين كان يفصلهم عنهم البحر الأصفر .

لقد جاءت البوذية من لدن مؤسسها سحابة قائمة من التشاوم ، تدعو الناس إلى الموت ، لكنها لم تلبث تحت سماء اليابان أن تحولت إلى عقيدة قوامها آلهة وافية ، وإلى محافل دينية تبعث الغبطة في النفوس ، وأعياد مرحة وحجيج إلى روائع الطبيعة على غرار ما كان يتمناه روسو ، وجنة موعودة تسرى عن الصلور كروها ؛ نعم إن البوذية آمنت بالحجيم كما آمنت بالجنة - بل آمنت

بوجود عدد من الجحيمات يبلغ مائة وثمانية وعشرين ، أعدت لشتى الغابات ومختلف الأعداء وآمنت بعالم للشياطين ، كما آمنت بعالم للقديسين ، كذلك آمنت بوجود شيطان مشخص ( يسمونه أوني ) له قرون وأنف أنطس ومخالب وأنياب ، ويسكن في مكان مظلم يقع في الشمال الشرقي ، وأنه آناً بعد آناً يغرى النساء بالذهاب إليه هناك ليمتعنه ، كما يغرى الرجال ليستمد منهم في غذائه مادة البروتين (٩٢) ؛ ولكن إلى جانب هذا كله كانت عقيدة البوذية الياباننة أن هناك « بوذين » كثيرين على استعداد أن يخلعوا على بنى الإنسان جزءاً من الرحمة التي جمعوها مقداراً على مقدار بسبب عودتهم إلى الحياة مرة بعد مرة ، وفي كل مرة يتمضون حياتهم في فضيلة ، وكانت هنالك كذلك عقيدة في آلهة رحيمة ؛ مثل « مولاتنا كوانون » ومثل « جيزو » الذي يشبه المسيح ؛ وفي أمثال هؤلاء تجمد الرحمة الإلهية بأدق معانيها ؛ وكانت العبادة يؤدّى بعضها صلاةً عند مذابح المنازل أو عند أضرحة المعابد ، على أن معظم عبادتهم كان يتخذ صورة المواكب المرحية ؛ كانت الديانة فيها تخلى المكان الأول لمظاهر الغبطة والفرح ، وكانت التقوى تتبدى علائقها في لبس النساء للأثواب الجميلة ، وفي انغماس الرجال في ألوان المتع ؛ ويستطيع العابد الجاد في عبادته أن يطهر روحه بالصلاة مدى ربع ساعة تحت شلال دافق في قلب الشتاء ؛ أو بالأخذ في رحلات ينتقل فيها من ضريح إلى ضريح من أضرحة مذهب ليشع روحه أثناء هذه الرحلات بجمال أرض الوطن ؛ ذلك لأن الياباني يستطيع أن يختار لنفسه مذهباً من عدة مذاهب في البوذية : فله أن يحقق وجود نفسه وأن يلتمس سعادة نفسه عن طريق شعائر « زين » ( أى التأمل ) الهادئة ؛ وله أن يتبع « نيشيرين » المتأجج فيأخذ عنه مذهب اللوتس ويظل في صيام وصلاة حتى يظهر له بوذا بشخصه ؛ وله أن يختار لطمأنينة نفسه مذهب الأرض الظاهرة ؛ بحيث لا يجد الخلاص إلا في الإيمان ؛ وله أن يختار لنفسه سبيلها في حج صبور إلى حيث دير « كوپاسان » وهناك يبلغ الجنة بأن

يدفن في أرض تقدست بفضل ما فيها من عظام « كويودايشى » - ذلك العظيم في علمه وفي تدينه وفي فنه، وهو الذى أسس في القرن التاسع مذهب « شنجون » أى مذهب « الكلمة الصادقة » .

وعلى وجه الحملة فالبوذية اليابانية هي من أمتع ما اعتقدت فيه الإنسانية من أساطير ، ولقد غزت اليابان مُسالمةً ، ولم يتعذر عليها وأن تخلى من نفسها مكاناً في لاهوتها وفي عداد آلهتها، لمذاهب « شنتو » وآلهتها فاندمج بوذا عندهم بـ « أماتيراسو » وخصص مكان متواضع في المعابد البوذية لضريح « شنتو » وكان الكهنة البوذية الذين ظهروا في القرون الأولى رجالاً فيهم الولاء وفيهم العلم وفيهم الرحمة ، وكان لهم أثر عميق في تقدم الآداب والفنون في اليابان ، حتى لقد كان منهم رسامين أو نحّاتين من الطراز الأول ، كما كان بعضهم علماء ، أخذوا على أنفسهم ترجمة الأدب البوذي والصيني ، فكانت ترجماتهم تلك حافظاً قوياً على التقدم الثقافي في اليابان على أن هذا النجاح كان سبباً في إفساد الكهنة في العصور المتأخرة ، إذ أصبح منهم كثيرون أميل إلى الكسل والجشع ( لاحظ في هذا الصدد الصور الرمزية التي كثيراً ما يصورهم بها اليابانيون الذين يحترفون مهنة النقش على العاج أو الخشب ) ، وبعُد بعض أولئك الكهنة عن بوذا بعداً فسيحاً بحيث راحوا ينظمون لأنفسهم جيوشاً ينشئون بها سلطة سياسية أو يحافظون بها على مثل هذه السلطة السياسية إن كانت قائمة (٩٣) ؛ ولما كان الكهنة يهثون للناس ضرورة هي أولى ضرورات الحياة - وأعنى بها تهيئة الأمل الذى يسرى عن النفوس . فقد ازدهرت صناعتهم حتى في الوقت الذى تدهورت فيه صناعات الآخرين ؛ وأخذت ثروتهم تزداد قرناً بعد قرن ، بينما لبث الشعب فقيراً على حاله (٩٤)؛ وقد أكد الكهنة للعباد المؤمنين بأن الرجل في سن الأربعين يمكنه أن يشتري عقداً آخر من السنين يضيفه إلى حياته إذا هو دفع رسوماً لأربعين معبداً تدعو له بذلك ، ويمكن للرجل في سن الخمسين أن يشتري عشر سنين أخرى إذا دفع الرسوم لخمسين

معاً آتدعو له ، وفي سن الستين يستأجر ستين معبداً - وهكذا حتى يموت بسبب ما قد يكون في تقواه من نقص (٩٥) (\*) ، وكان الرهبان في عهد «توكوجاوا» يشربون الخمر إلى درجة الإسراف ويحيطون أنفسهم بالغانيات صراحة ، ويمارسون اللواط (\*\*\*) ، ويبيعون أحسن مناصب الدين إلى من يدفع فيها أغلى الأثمان (٩٦) .

ويظهر أن البوذية قد فقدت سلطانها على الأمة خلال القرن الثامن عشر ؛ واتجه الحكام العسكريون نحو الكونفوشية ، ونهض «مايوشي» و «موتوأوري» فتزعموا حركة تدعو إلى إحياء عقيدة «شنتو» ؛ وحاول علماء من أمثال «إشيكوا» و «أراي هاكوسيكى» أن ينقدوا الدين نقداً عقلياً ؛ فقال «إشيكوا» في جراءة بأن الأصول الدينية التي تتناقلها الأجيال عن طريق الرواية الشفوية يستحيل أن تبلغ من اليقين مبلغ المدونات المكتوبة ؛ وأن الكتابة لم تدخل اليابان إلا بعد ألف عام تقريباً من الأصل المزعوم للجزر اليابانية وأهلها من أن هذه الجزر وهؤلاء الأهلين قد نشأوا من قطرات الرمح التي أمسك بها الآلهة ، أو من أصلاب هؤلاء الآلهة ؛ وأن ادعاء الأسرة الإمبراطورية بأنها من أصل إلهي ، إن هو إلا حيلة سياسية ، وأنه إذا لم يكن أسلاف البشر بشراً مثلهم فالأرجح أن يكونوا حيواناً ، فذلك أقرب إلى التصديق من أن يكونوا آلهة (٩٩) ؛ وهكذا بدأت المدنية في اليابان القديمة - كما بدأت في بلاد كثيرة غيرها - بالدين ، وها هي ذى تدنو من ختامها بالفلسفة .

(\*) يقول مردوخ : « كان للرهبان في دير كيوتو » و «قارا» العظيمين يبلغون ذروة مجدهم المادى في الأوقات التي كان يتضور الشعب فيها جوعاً ، أو يموت بشرات الآلاف من الوباء ، لأن المؤمنين بالدين يسخون في هداياهم وعطاياهم أعظم سخاء في أمثال هذه الأوقات (٩٦) .

(\*\*) في سنة ١٤٥٤ ... كان الصبية يباعون غالباً للكهننة ، فكان هؤلاء الكهننة يخلقون لهم حواجيمهم ويزينون وجوههم بالمساحيق ويلبسونهم أردية النساء ، ويستعملونهم أسفل ضروب الاستعمال ، لأنه منذ عهد «يوشيمتسو» الذي نضرب مثلاً سيناً في هذا الصدد وفي كثير غيره من الأمور ، واللواط يزداد شيوعاً ، خصوصاً في الأديرة ، ولو أنه لم يكن قاصراً على الأديرة وخدماً (٩٧) .

## الفصل السابع

### المفكرون

كونفوشيوس يصل اليابان - ناقد للدين - ديانة العلماء - كايبارا إاكن - في التربية -  
في ألوان المتعة - المدارس المتنافسة - سينوزا ياباني - إيتوجنساى - إيتوتوجاى -  
أوجيو سوارى - حرب العلماء - مايوشى - موتو أورى

جاءت الفلسفة - كما جاء الدين - إلى اليابان قادمة من الصين ؛ وكما أن  
البوذية قد انتهت إلى « نيبون » بعد دخولها في « مملكة الشعب الوسطى الزاهرة »  
بستائة عام ؛ فكذلك بلغت الفلسفة مرحلتها الواعية في اليابان - متخذة صورة  
المذهب الكونفوشيوسى - بما يقرب من أربعائة عام بعد أن أفاضت الصين  
على الكونفوشيوسية حياة جديدة ؛ ففي نحو منتصف القرن السادس عشر ،  
ظهر رجل من سلالة الأسرة اليابانية المشهورة ، وهو : « فيوجيواراسيجوا »  
ولم يرُضه العلم الذى حصله باعتباره راهباً ؛ وكان قد سمع بحكماء عظام  
في الصين ، فقرر أن يرتحل إلى هناك طالباً للعلم ؛ ولما كان الاتصال بالصين  
محرمًا في سنة ١٥٥٢ ، فقد دبر الكاهن الشاب خطة يعبر بها مياه البحر  
في سفينة كانت تشتغل بالتهريب ؛ وحدث أن كان يرقب هذه السفينة في  
نُزل في الميناء ، فسمع إذذاك طالباً يقرأ بصوت عال باللغة اليابانية كتاباً  
صينياً عن كونفوشيوس ؛ فكم كانت غبطة « سيجوا » حين علم أن الكتاب  
من تأليف « شوهسى » تعليقاً على « العلم الواسع » ؛ فهمس لنفسه قائلاً : « هذا  
هو ما كنت أسعى إليه منذ طويل » ؛ ولبث يبحث بحثاً لا يفتر حتى حصل  
على نسخة من هذا الكتاب كما حصل على نسخ من سائر ما أنتجته الفلسفة  
الكونفوشيوسية ، وانغمس في تتبع ما في هذه الكتب من مجادلات ،

حتى نسي رحلته إلى الصين ؛ ولم تمض بضعة أعوام حتى جمع حوله طائفة من طلبة العلم الناشئين ، الذين نظروا إلى فلاسفة الصين نظرتهم إلى وحى أوحى به إليهم عن عالم جديد طريف يسوده الفكر الدنيوى ؛ وسمع « أياسو » بما قد انتهت إليه تلك الدراسات ، فطلب من « سِجوا » أن يأتيه ليعرض عليه مضمون هذه المؤلفات الخالدة التي تنسب إلى كونفوشيوس ؛ لكن الكاهن المعتد بنفسه آثر البقاء في مكانه الهادئ الذي يدرس فيه ، وأرسل بدلاً عنه أحد تلاميذه النابهين ؛ ورغم عكوفه هذا ، أخذ الشباب الممتاز في عصره بفاعلية العقل ، يحج إليه ويطرق بابه ، واستوقفت محاضراته الأسماع إلى حد جعل الرهبان البوذيين في كيوتو يرفعون عقائرهم بالشكوى ، قائلين إنها لثورة أن يقوم كاهن أصيل لم يزل في سلك الكهنوت ، فيلقى محاضرات عامة أو يعلم الشعب (١٠٠) ، غير أن الأمر حُلَّت عقده بموت « سِجوا » موتاً مفاجئاً ( سنة ١٦١٩ ) .

وسرعان ما كسب تلميذه الذي أرسله إلى « أياسو » شهرة فاقت شهرته ، وأصبح له من التأثير ما بزَّ به تأثير أستاذه ؛ وكان تلميذه هذا هو « هاياشى رازان » الذي مال إليه الحكام العسكريون الأولون من أسرة « توكوجاوا » ، فجعلوه مستشارهم وطلبوا إليه أن يصوغ لهم الكلمات التي يتوجهون بها إلى الشعب ؛ وضرب « أيمتسو » مثلاً لطائفة النبلاء ، إذ جعل يختلف إلى محاضرات « هاياشى » في سنة ١٦٣٠ ؛ وسرعان ما ملأ هذا الشاب الكونفوشيوسى صدور سامعيه حماسة للفلسفة الصينية ، حتى لم يعد عسيراً عليه أن يجتذبهم من البوذية والمسيحية على السواء ، ويضمهم إلى العقيدة الخلقية البسيطة التي أشاعها حكيم « شانتونج » في أرجاء الشرق الأقصى ؛ فقد أنبأهم أن اللاهوت المسيحي خليط من أوهام خلقها الخيال ولا تعقلها العقول ، كما أنبأهم أن البوذية مذهب يفت في عضد الأمة اليابانية ويتهدد نسيجها بالوهن وروحها المعنوية بالضعف ؛ يقول لهم « رازان » . « إن كهنتكم يذهبون إلى أن

هذه الحياة الدنيا فانية زائلة ؛ ثم تعملون أنتم على أن ينسى الناس علاقاتهم الاجتماعية ، وبهذا تقتلون في الناس روح الواجب والفعل الصواب ؛ ثم تقولون إن طريق الإنسان محفوف بالخطايا ؛ فاهجر أباك وأمك وأبناءك ومولاك ، وابحث عن الخلاص ، وهأنذا أقول لكم إنى قد تعمقت الدراسة ، فلم أجد قط للإنسان طريقاً سوى ولائه لمولاه وطاعة الإبن لآبائه « (١٠١) » ؛ وكان « هاياشى » ينعم في شيخوخته بشهرة هادئة ، حين شبت النار الكبرى في طوكيو سنة ١٦٥٧ ، فشملته بين من قضت عليهم من أنفس بلغت مائة ألف ؛ وكان تلاميذه قد أسرعوا إليه يندرونه بالخطر الداهم ، لكنه لم يفعل سوى أن هز رأسه وعاد بنظره إلى الكتاب ؛ فلما دنت منه السنة اللهب ، أمر بمحفة يحمل فيها ، وحملوه وهو لم يزل يقرأ في كتابه ؛ وقضى ليلته تلك - كما قضاها غيره ممن لا يحصيهم العدد - قضاها في العراء تحت نجوم السماء ؛ ومات بعد ذلك بثلاثة أيام متأثراً بالبرد الذى أصابه أثناء الحريق .

رغبت الطبيعة اليابان عن موته ، بأن هيات لها في العام الثانى لموته رجلا من أشد أنصار الكونفوشيوسية حماسية ؛ وذلك هو « موروكيسو » الذى اختار لنفسه « إله العلم » إلهاً يرعاه ؛ ففي صدر شبابه قضى ليلة بأسرها أمام ضريح « متشيزان » يودى الصلاة ؛ ثم وهب نفسه للعلم بعزم الشباب ، وكانت عزيمته شديدة الشبه بعزيمة معاصره سبينوزا (\*) .

سأنهض من نومي كل صباح في الساعة السادسة ، وآوى إلى مخدعي كل مساء في الساعة الثانية عشرة

ولن أجلس بغير عمل إلا إذا حال دون ذلك أضياف أو مرض أو غير ذلك من ظروف القاهرة ...

لن أنطق بباطل

(\*) راجع فاتحة كتاب سبينوزا « في الإصلاح العقل » .

سأجتنب الألفاظ التي لا تغني شيئاً ، حتى إن كنت أوجه الحديث  
إلى من هم دوني

سأكون معتدلاً في طعامي وشرابي

وإذا اشتعلت في الشهوات ، سأقضي عليها فوراً ، دون أن أعينها قط  
على التزايد

ن تشتت الفكر يفسد قيمة القراءة ، فسأقاوم جهدي كل ما يصرفني  
عن حصر انتباهي ، وسأقاوم في نفسي العجلة الزائدة .

سأسعى إلى تثقيف نفسي بنفسي ، ولن أسمح للرغبة في الشهرة أو في  
الكسب أن تحدث في عقلي اضطراباً .

إنني سأنقش هذه القواعد في صفحة قلبي ، وسأحاول أن أتبعها .

وإنني لأشهد الآلهة على ما أقول (١٠٢)

ومع ذلك فلم يكن « كيوسو » ليدعو الناس إلى عزلة العلماء التي نعهدنا  
في رجال العصور الوسطى ، بل كان له من رحابة الأفق ما كان « بلجيته » ؛  
فوجه نفسه وجهة تسائر العالم في مجراه :

إن اعتزال الناس أحد الطرق ، وإنه لطريقة جميلة ، لكن الرجل الأعلى  
يسره أن يزور الأصدقاء ؛ إن الرجل ليصقل نفسه صقلاً باتصاله بالناس ؛  
وإن من أراد تحصيل العلم ، لا مندوحة له عن الصقل عن هذا الطريق ؛  
أما إن اعتزل كل شيء وكل إنسان ، فإنما هو بذلك يجاوز جادة الصواب ...  
إن طريق الحكماء ليس منفصلاً عن طريق الحياة اليومية . فعلى الرغم من أن  
اليوزيين يستحبون أنفسهم من العلاقات الإنسانية ، فيبترون الرابطة بين  
المتبوع وتابعه ، وبين الوالد وولده ، فهم عاجزون عن بتر علاقة الحب من  
أنفسهم . . . . إنها أنانية أن تسعى وراء السعادة في العالم الآخر . لا تظنوا  
أن الله بعيد عنكم ، بل ابحثوا عنه في قلوبكم ، لأن القلب هو مقر الإله (١٠٣) .

وأروع من يستوقف النظر من هؤلاء الكونفوشيوسيين اليابانيين القدامى رجل لا يسلكونه عادة في عداد الفلاسفة ، لأن مثل « جيته » ومثل « إمرسن » كانت له القدرة على صياغة حكمته في عبارة رشيقة ، فأحس الأدب غيرة عليه ، وطالب به عضواً في جماعة الأدباء ، وذلك هو « كايبارا إكن » الذي كان ابن طيب مثل أرسطو ، ثم خرج عن دائرة الطب إلى فلسفة تجريبية تتصف بالدقة والحذر ، فعلى الرغم من مشاركته في الحياة العامة بسيرة مليئة بالعمل ، بما في ذلك كثيراً من المناصب شغلها ، فقد وجد من وقته فراغاً يستعين به على أن يكون أعظم علماء عصره ؛ وبلغت كتبه عدداً يربى على المائة ، فكتبت له الشهرة في أرجاء اليابان جميعاً ؛ وذلك لأنه لم يكتب كتبه تلك باللغة الصينية ( كما كانت عادة زملائه الفلاسفة ) بل كتبها باليابانية السهلة التي يستطيع كل من عرف القراءة أن يفهمها ؛ وعلى الرغم من علمه وشهرته ، فقد كان له - إلى جانب الغرور الذي تراه عند كل كاتب - تواضع كالذي تراه عند كل حكيم ، ويروى الرواة أن مسافراً على سفينة كانت تشق طريقها بجذاء الساحل الياباني ، تعهد لزملائه في السفر أن يحاضرهم في الأخلاق الكونفوشيوسية ؛ فأنصت له الجميع بادئ ذي بدء بما عرف عن اليابانيين من حب استطلاع وشغف بالزيادة من العلم ؛ ولكن ما كاد يمضي المتكلم في حديثه قليلاً ، حتى وجد السامعون أن كلامه يبعث الملل إذ لم يكن للرجل أنف حساس يهديه إلى التمييز بين الحقيقة الحية والحقيقة الميتة ، فانصرفوا عنه بعد وقت وجيز ، ولم يبق منهم إلا سامع واحد . راح هذا السامع الواحد يتتبع البحث بتركيز عجيب في انتباهه ، حتى سأله المحاضر حين فرغ من محاضرتة ، ما اسمه ، فأجابه بصوت هادئ إن اسمه « كايبارا إكن » ؛ فخجل الخطيب إذ علم أنه لبث ساعة أويزيد ، يحاول أن يلقي الكونفوشيوسية لرجل هو ألمع أعلام المذهب الكونفوشيوسى في عصره (١٠٤) .

كانت فلسفة « إكن » خالية من اللاهوت خلو فلسفة « ك أونج » منه إذ

حصر نفسه في حدود هذه الدنيا ما دام لا سبيل إلى معرفة سواها ؛ « إن همقى الناس يؤدون صلواتهم لآلهة مشكوك في وجودها ، طلباً لسعادة أنفسهم في الوقت الذي تراهم فيه يقترفون الموبقات (١٠٥) » ؛ وحاول أن تكون فلسفته عاملاً على توحيد خبرة الحياة وحكمة العقل ، وتوحيد الشهوات والخلق المستقيم ، فقد كان من رأيه أن الأمر الأهم الذي يدعو قبل غيره إلى التفكير ؛ هو كيف نجعل من الشخصية الإنسانية وحدة متكاملة ، فذلك أجدى علينا من التفكير في كيفية توحيد المعرفة ، وتراه يتحدث بلسان يدهشك أن تلمح فيه نغمة الزمن الذي نعيش فيه الآن .

« ليس الغرض من التعلم هو مجرد التوسع في المعرفة ، بل الغرض هو تكوين الشخصية ؛ غاية التعلم أن نخلق من أنفسنا رجالاً صادقين قبل أن نكون رجالاً عالمين ... إن دراسة الأخلاق التي كانت تُعدُّ عماد التعليم في مدارس العهد القديم تكاد لا تجد مكاناً في مدارسنا اليوم ، لكثرة ما يطلب إلى التلاميذ دراسته من مواد ؛ لم يعد الناس يرون في صالحهم أن ينفقوا مجهودهم في الإصغاء إلى تعاليم الأعلين من رجال الحكمة القدماء ونتج عن ذلك أن ضحينا على المذبح الذي يسمونه « حق الفرد » بعلاقات الود بين السيد وخدامه ، والرئيس ومرءوسيه ، والكبير والصغير . السبب الحقيقي الذي حدا بالناس ألا يقدرُوا تعاليم الحكماء هو أن العلماء يحاولون أن يتظاهروا بعلمهم فذلك عندهم أولى من أن يعيشوا على غرار ما جاء في تعاليم الحكماء » (١٠٦) .

ويظهر أن شباب عصره قد توجه إليه باللوم على جموده ، لأننا نراه يلقى في وجوههم درساً لا بد لكل جيل قوى من الناس أن يعود إلى دراسته :

« قد تظنون يا أبنائي أن كلمات رجل كهل تدعو إلى السأم ومع ذلك فإذا ما لفتنكم أبوكم درساً ، فلا تزوروا عنه ، بل اصغوا إلى ما يقول ؛ قد

تظنون أن تقاليد أسرتكم أمر سخيف ، ومع ذلك فلا تحطموها ، لأنها تجسيد  
لحكمة آباؤكم» (٧٠١) .

ولعله كان يستحق اللوم على أهم كتبه وعنوانه «أونا ديكاكو» ومعناه  
«الحكمة العظمى للنساء» لأن هذا الكتاب كان له تأثير رجعي قوى على  
مركز المرأة في اليابان ، لكنه لم يكن واعظاً متجهماً يحاول أن يتلمس الخطيئة  
في كل ما يجلب المتعة ، فقد أدرك أن من مهام المربي أن يعلمنا كيف نستمتع  
بالبيئة التي نعيش فيها ، كما يعلمنا أن نفهم تلك البيئة وأن نتحكم فيها (إذا  
استطعنا) :

«لاتدعوا يوماً واحداً يفر من أيديكم بغير متعة . . . لا تسمحوا للحماقة  
الآخرين أن تنال من أنفسكم تعديباً . . . تذكروا أن الدنيا لم تخل من الحمق  
منذ أول خلقها . . . فلا ينبغي إذن أن نغم أنفسنا ، أو أن نضيع أسباب متعتنا ،  
حتى إن حدث لأبنائنا وأشقائنا وأقربائنا أن يكونوا أثريين فيتجاهلوا خير  
مجهوداتنا في سبيل إسعادهم . . . إن «ساكي» (نوع من الخمر) هو هبة السماء  
الرائحة ، فهي توسع القلب إذا ما شربناها بمقادير قليلة ، وهي كذلك تنعش  
الروح إذا ما ناله الهم ، وتفرق الهموم وتصلح الصحة ، وبذلك تعين الإنسان  
وأصدقائه أيضاً على التمتع بأسباب اللذة ، غير أن من يسرف في شربها يفقد  
احترامه ، وينزلق لسانه بالثرثرة ، وينطق بكلمات مسيئة كأنه مجنون . . .  
اشربوا «الساكي» بالمقدار الكافي لإنعاش نفوسكم ثم لزيادة ، وبذلك  
يمكنكم أن تتمتعوا بروية الزهر وهو يتفتح من أكمامه ، إن من الحمق أن  
تسرف في الشراب فتفسد على نفسك هذه الهبة العظيمة التي وهبها لك  
السماء» (١٠٨)

ولقد وجد - كما وجد غيره من سائر الفلاسفة - أن الطبيعة هي آخر  
موئل يلوذ به ليلتمس سعادته :

«لوانا جعلنا قلوبنا معين النعيم . وأعيننا وأذاننا أبوابه ، ثم اجتنبنا  
سافل الشهوات إذن لتكاثر نعيمنا ، لأننا عندئذ نصبح سادة الجبال والماء والقمر

والزهور ؛ ولا يكون بنا حاجة إلى سؤال أحد يهبنا هذه الأشياء ؛ كلا ولا بنا أن ندفع سناً ( مليماً ) واحداً لنظفر بها ، لأن هذه الأشياء لا يملكها إنسان بعينه إن أولئك الذين يستطيعون أن يستمتعوا بجمال السماء من فوقهم ، وجمال الأرض من تحتهم ، ليس بهم حاجة إلى أن يغبطوا الأغنياء على رفاهية عيشهم ، لأنهم عندئذ يكونون أغنى من أغنى الناس ؛ إن مشاهد الطبيعة في تغير دائم ، فلست تجد صباحين أو مساءين على أتم تشابه ... ففي لحظة ما قد يحس الإنسان كأن جمال الدنيا بأسره قد انمحي ؛ لكن ما هو إلا أن يأخذ الثلج في السقوط ، وينهض الإنسان من نومه في الصباح التالي ، ليجد القرية والجبال قد تحولت إلى فضة ، وتدب الحياة في الأشجار التي كانت عارية ، إذ يعود إليها بأزهارها ... إن الشتاء يشبه نعاس الليل ، الذي يجدد لنا القوة والنشاط .

إنني أحب الزهر ، فأنهض من نومي مبكراً  
وأحب القمر ، فأوى إلى مخدعي متأخراً ...  
إن الناس يجيئون ويروحون كأنهم مجارى الماء العابرة  
أما القمر فباق على طول العصر (١٠٩)

لقد كان تأثير الكونفوشيوسية على التفكير الفلسفي في اليابان أشد منه في الصين نفسها ، لأنه قضى هناك على كل مقاومة من فريق الثائرين من جهة ، كما قضى على المثاليين المتصوفين من جهة أخرى ؛ إن مدرسة « شوشي » التي كان من رجالها « سيجوا » و « رازان » و « إكن » ، التي سميت بهذا الاسم نسبة إلى « شوهسي » لأنها اتبعت طريقته في تفسير الكتب الصينية التي تحتوى على المتون ، تفسيراً توخى فيه التزام الأصل وعدم الحرية في التصرف ، ولقد نهضت مدرسة أخرى ظلت تقاومها حيناً ، هي مدرسة « أويومي » التي كان على رأسها « وانج يانج منج » (\*) الذي عرفه « نيبون » باسم « أويومي »

( \* ) راجع ما جاء عنه في هذا الجزء الخاص بالمدينة في الصين من هذه السلسلة .

فلاسفة اليابان الذين كانوا ينتمون إلى مدرسة «أويومي» اقتفوا أثر «وانج» في استدلال الصواب والخطأ الأخلاقيين من ضمير الفرد ، أكثر مما عملوا في ذلك إلى تقاليد المجتمع وتعاليم الحكماء الأقدمين ، يقول «ناكاي توجو» (١٦٠٨ - ٤٨) : «لقد لبثت أعواماً طويلاً أو من إيماناً قوياً في «شوشى» حتى شاءت رحمة الله أن ترد إلى اليابان لأول مرة مؤلفات «أويومي» ، ولولا ما استقيته من تعاليمها ، لظلت حياتى فارغة جدباء» (١١٠) ، وعلى ذلك أخذ «ناكاي» على نفسه أن يبشر بوحدانية مثالية ، تذهب إلى أن العالم وحدة من «كى» و«رى» - أى وحدة من الأشياء الجزئية (أو الأعراض) والعقل أو القانون ؛ والله ، وهذه الوحدة شىء واحد ؛ فعالم الأشياء جسده والقانون الكونى روحه (١١١) ، فقد جرى «ناكاي» مجرى «سينوزا» و«وانج يانج منج» والفلاسفة المدرسين فى أوربا ، فى قبوله لهذا القانون الكونى بشىء من الحب العقلى ، واعتبر الخير والشر لفظتين بشريتين ، ووجهة نظر ذاتية لا تعبر عن حقائق موضوعية ، وهو كذلك يشبه «سينوزا» شهاً عجيباً فى أنه رأى معنى من معانى الحلود فى الوحدة التأملية التى تدمج روح الفرد فى قانون العالم أى عقل العالم الذى لا يخضع لقيود الزمان :

«إن عقل الإنسان هو عقل العالم الذى يخضع فى سيره لمنطق العقل ، لكن هناك عقلاً آخر يسمى بالضمير ، وهذا هو الجانب الذى لا ينتمى إلى عالم الأشياء بل هو لا نهائى وأبدي ، لأنه لما كان الضمير فينا هو نفسه العقل الإلهى أو الكونى ، كان بغير بداية أو نهاية ، فإذا ما سلكنا فى أفعالنا مهتدين بهذا الجانب من العقل ، أى بالضمير كنا بمثابة التجسيد اللانهائى والأبدي ، وكانت لنا حياة خالدة إلى الأبد» (١١٢) .

كان «ناكاي» رجلاً له إخلاص القديسين ، لكن فلسفته لم تصادف هوى لا عند الشعب ولا عند الحكومة ، فقد ارتعدت حكومة الحكام

العسكريين للفكرة القائلة بأن كل إنسان له حق الحكم بنفسه فيما يعتبر صواباً وما يعتبر خطأ ، فلما نهض رجل آخر ، هو « كومازاوا بانزان » يبشر بمذهب « أويومي » ثم تجاوز حدود الميتافيزيقا وأوغل في السياسة ، بحيث انتقد جهل « السيفين » وخواء حياتهم ، صدر أمر بالقبض عليه ، وكان « كومازاوا » يدرك أهمية العتمين في الإنسان ، باعتبارهما عضوين ينفعان الفلاسفة بصفة خاصة في الفرار ، فهرب إلى الجبال ، حيث قضى معظم ما بقي له من سنين في غمرة الغابات (١١٣) ، وفي سنة ١٧٩٥ صدر مرسوم يحرم المضي في تعليم فلسفة « أويومي » ، وكان العقل الياباني من الاستسلام بحيث توارت تعاليم « أويومي » منذ ذلك الحين ، فاندست في عبارات كونفوشيوسية ، أو دخلت عنصراً متواضعاً في القانون العسكري ، مما يدل على ما قد يبديه مجرى التاريخ من مناقضات ، إذا حولت العقيدة البوذية المسألة إلى تعاليم توحى للمقاتلين المتحمسين للوطن بالقتال ۞

ولما تقدم البحث العلمي في اليابان ، بحيث صار في مقدور العلماء أن يتصلوا بكونفوشيوس في أصوله إلا في شروح الشارحين استطاع رجال من أمثال « إيتوچنسى » و « أوجيوسوراي » أن يؤسسوا المدرسة الكلاسيكية للفكر الياباني ، التي أصرت على أن تتخطى الشارحين جميعاً ، فتصل بـ « ك أونج » العظيم اتصالاً مباشراً ، ولم تكن أسرة « إيتوچنسى » لتتنق معه في تقديره لكونفوشيوس ووصمته بأنه يسبح من دراساته في عالم نظري مجرد ، وتنبأت له بأنه سيموت فقيراً وأنباته : « بأن البحث العلمي من خصائص أهل الصين ، أما في اليابان فليس البحث العلمي بذى غناء ، لأنك حتى إن برعت فيه ، فلن تجد من تبيع له بضاعتك ، وخير لك ألف مرة أن تكون طيبياً وتكسب المال » لكن الطالب الناشئ أصغى إلى قول أسرته دون أن يستمع له ، ونسى منزلة أسرته وثراءها ، واطرح كل طموح مادي جانباً ، وتنازل عن بيته وأملاكه إلى أخيه الأصغر ، والتمس مكاناً معزولاً يعيش فيه ليتابع

دراساته بغير اضطراب وكان ولاسيما حتى لقد ظنه الناس أحيانا أميراً ، لكنه ارتدى ثوب فلاح وتوارى عن أعين الناس ، يقول مؤرخ ياباني :

إن « جنسى » كان فقيراً معدماً ، بلغ من الفقر حداً أعجزه في نهاية العام أن يصنع كعك الأرز الذي يصنعه الناس في بداية العام الجديد ؛ لكنه كان ثابت الجنان إزاء فقره هذا ؛ ولقد جاءت زوجته وجئت على ركبتيها أمامه وقالت : « سأؤدى واجبات الدار مهما تكن الظروف لكن ثمت شيئاً لا يحتمل ، ذلك أن ولدنا « جنسو » لا يفهم معنى ما نحن فيه من فقر ، وهو يغبط أبناء الحار على ما يأكاونه من كعك الأرز ، وإننى أوئبه على ذلك ، لكن قلبي ينفطر له حتى ليكاد ينشق نصفين » لكن جنسى مضى منكباً على كتبه دون أن يجيبها بكلمة ، ثم خلع خاتمه العقيق وناولها إياه ، كأنما يقول لها : يبعي هذا واشترى بضعة كعكات من الأرز « (١٠٤) .

أنشأ « جنسى » في كيوتو مدرسة خاصة ، وأخذ يحاضر هناك مدى أربعين عاماً ، وأهم ما قام به أنه درب عدداً يقرب من ثلاثة آلاف طالب في الفلسفة وكان يتحدث آنأ بعد آن في الميتافيزيقا ، ويصف الكون بأنه كائن عضوى حى ، تغلب فيه الحياة على الموت دائماً ، لكنه كان مثل كونفوشيوس يتحيز تحيزاً شديداً لما هو نافع على هذه الأرض .

وإن ما لا ينفع في حكم الدولة ، أو في تيسير العلاقات بين أفراد الإنسان ، لا غناء فيه ... لا بد للتعلم أن يكون مصحوباً بالفاعلية والحياة ؛ ولا ينبغي أن يقتصر على مجرد النظريات الميتة أو التأمل ... إن من يعرف الطريق يلتمسها في حياته اليومية ... إنك إذا حاولت أن تلتمس الطريق بعيداً عن العلاقات الإنسانية ، فأنت بمثابة من يحاول أن يمسك الريح ... إن الطريق المأوفة ممتازة بحسبها ، ولن نجد في العالم ما يفوقها حسناً « (١١٥) .

وبعد موت « جنسى » مضى ولده « إيتو توجاى » فى واصله مدرسته وعمله ؛ وكان « توجاى » يهزأ بالشهرة ويقول « هل يسعك أن تسمى من ينسى اسمه بمجرد موته إلا بأحد اسمين ، فإما حيوان وإما رماد ؟ ولكن ألا يخطئ الإنسان إذا ما اشتدت رغبته فى تأليف الكتب وإنشاء العبارات لكى يلقى اسمه إعجاباً ولا ينساه الناس ؟ » (١١٦) وهو نفسه كتب مائتين واثنين وأربعين كتاباً ، ومع ذلك عاش حياة متواضعة تملؤها الحكمة ؛ ويشكو النقاد من أن هذه الكتب كانت كلها قوية فيما أسماه « مولير » بالفضائل التى تجلب النعاس ولكن تلاميذ « توجاى » يقولون إنه كتب مائتين واثنين وأربعين كتاباً دون أن يقول كلمة واحدة عن أى فلسوف آخر ، ولما مات وضعوا على قبره هذا « الشاهد » الذى نغطبه عليه :

إنه لم يتحدث فى أخطاء الآخرين ...

ولم يهتم بشيء إلا بالكتب

وكانت حياته خلواً من الحوادث (١١٧)

على أن أعظم رجل من أتباع كونفوشيوس المتأخرين ، هو « أوجيوسوراى » فعلى حد قوله هو « منذ عهد جيو - أول أباطرة اليابان - لم يظهر من يوازيه إلا نفر قليل » وهو على نقيض « توجاى » فى أنه كان يحب النقاش ، وكان يعبر عن رأيه بقوة عن الفلاسفة الأحياء منهم والأموات ؛ فلما سأله سائل شاب : « ماذا تحب غير القراءة ؟ » أجاب « ليس أحب إلى من أكل الفول المحروق ونقد عطاء اليابان » ويقول « ناميكواوا تنجين » : « إن سوراي رجل جد عظيم ، لكنه يظن أنه يعلم كل ما يمكن علمه ، وهذه عادة سيئة » (١١٨) ، وكان فى مستطاع « أوجيو » أن يكون متواضعاً إذا ما أراد ذلك ، ومن رأيه أن اليابانيين جميعاً - ويذكر نفسه بينهم صراحة - قوم همج ، وليس يعرف المدنية غير أهل الصين ، وأنه « إذا كان هناك شيء لا بد من قوله ، فقد قاله

بالفعل الملوك القدامى أو كونفوشيوس» (١١٩)، وثارَت في وجهه فئة «السيافين» وفئة العلماء، لكن الحاكم العسكري المصلح «يوشيمونى» أعجبتَه فيه شجاعته ودافع عنه ضد السوقة العقلية، وقد أقام «سوراي» منبره في «ييدو» وراح يضحك ويسخر من «چنسى» الذى كان قد أعلن أن الإنسان خير بطبعه، فما أشبهه في ذلك بـ «هسون تسي» حين عارض النزعة العاطفية في «موتى» أو بـ «هيز» حين فند «روسو» قبل أن يأتى «روسو» إلى عالم الوجود، وقال: «سوراي» إن الإنسان - على نقيض ما ظنه «چنسى» - شرير بطبعه، يختطف كل ما تقع عليه يده، ولا يجعل منه مواطناً مقبولاً إلا الأخلاق والقوانين الموضوعتين، والتربية التى لا تلبس في معاملته:

«تثور في الإنسان شهواته بمجرد ولادته، فإذا عاجزنا عن تحقيق تلك الشهوات في أنفسنا - وهى شهوات لا حد لها - ينشأ النزاع، فإذا ما نشأ نزاع أعقبته الفوضى، ولما كان الملوك القدامى يكرهون الفوضى، فقد وضعوا أسس اللياقة والاستقامة في السلوك، واستطاعوا بهما أن يلجموا شهوات الناس... فليست الأخلاق سوى الوسائل الضرورية لضبط رعايا الإمبراطورية فهى لم تنشأ مع الفطرة ولا مع نزوات القلب الإنسانى لكنها من تدبير طائفة معينة من الحكماء امتازت بذكائها، ثم خلعت عليها الدولة مسحة السلطان» (١٢٠).

وكأنما أرادت الأيام أن تثبت تشاؤم «سوراي»، فهبط الفكر اليابانى في القرن الذى تلاه، هبط حتى عن الحد المتواضع الذى كان قد ارتفع إليه بفضل محاكاته لكونفوشيوس، وضاع أباديد في حرب أراقت المداد بين وثني الصين ومؤمنى اليابان، وفي هذه الحرب التى شنّها الأقدمون على المحدثين، كتب النصر للمحدثين، لأنهم جعلوا الأسلاف موضع إعجابهم، فتفوقوا في ذلك على أعدائهم وكانت الطائفة التى تناصر الصين من العلماء «واسمها كانجا كوشا» تسمى بلادهم اليابان - وهى وطنها - قطراً همجياً،

واحتجت بأن الحكمة كل الحكمة مقرها في الصين ، وقنعت بترجمة الأدب والفلسفة الصينيين والتعليق عليهما ، أما العلماء الذين يناصرون اليابان ( واسم جماعتهم واجاكوشا ) فقد هاجموا هذا الموقف من معارضيتهم لأنه موقف يؤدي إلى إشاعة الجهل ونبد الروح الوطنية ، ودعوا أمتهم أن تستدبر الصين ، وأن تجدد قواها بالأخذ عن تراثها هي من شعر وتاريخ ، وهاجم «مايوشي» أهل الصين قائلاً إنهم قوم أشرار بفطرتهم ، ومجد اليابانيين لأنهم خيرون بطبعهم ، وعزا فقر اليابان القديمة في الأدب والفلسفة إلى أن اليابانيين لم يكونوا بحاجة إلى إرشاد في الفضيلة ولا في العقل (\*).

وحدث لطبيب شاب اسمه « موتو أورى نوريناجا » أن زار « مايوشي » فتأثر به إلى حد جعله ينفق أربعة وثلاثين عاماً في كتابة أربعة وأربعين مجلداً ، بشرح فيها الـ « جوجيكي » ومعناها « مدونات الحوادث القديمة » - وهي المستودع الأصيل لأساطير اليابان ، وخصوصاً أساطير « شنتو » ، فجاء هذا الشرح بعنوانه « كوجيكي دن » ، هجمة عنيفة على كل ما هو صيني في اليابان أو خارج اليابان ، واستمسك استمسكاً شديداً بالصحة الحرفية لما ترويه القصص البدائية عن الأصل الإلهي الذي نشأت عنه الجزر اليابانية ، والأباطرة والشعب ، وشجع هذا الكتاب طبقة المثقفين في اليابان - رغم أنف الأوصياء على العرش عندئذ من أفراد أسرة توكوجاوا - شجعهم على الرجوع إلى لغة بلادهم وطرائق العيش فيها وتقاليدها ، ومعنى ذلك كله أن يعيدوا عقيدة « شنتو » بدلا من البوذية ، وأن يردوا للأباطرة سيادتهم على طبقة

---

(\*) النبارة الآتية مقتبسة من تعاليم « مايوشي » كما بسطها « سيراً . ساتو » : « لما كانت ميول الناس في العصور الخالية مستقيمة . لم يكن من الضروري أن يتخذوا تشريراً خلقياً معقداً ... لم يكن من الضروري في تلك الأيام أن يكون للناس مذهب في الصواب والخطأ ، أما أهل الصين ، فلأنهم أشرار بفطرتهم ... كانوا خيرين في الظاهر وحده وكانت أفهامهم الشريرة من الفداحة بحيث وقمت الجماعة في حالة من الفوضى ؛ ولأن اليابانيين كانوا على استقامة في الخلق ، فقد استغفروا عن التعلم (١٢١) .

الحكام العسكريين ، فقد كتب « موتو أورى » يقول : « كانت اليابان هي التي ولدت إلهة الشمس « آماتيراسو » ، وتدل هذه الحقيقة على سيادتها على سائر الأقطار جميعاً » (١٢٢) ، واستأنف تلميذه « هيراتا » - بعد موت موتو أورى - سبيل المحاجة في الموضوع فقال :

« إنه لما يدعو إلى الأسف الشديد ، أن يسود كل هذا الجهل بالشواهد التي تدل على المذهبين الأساسيين ، وهما أن اليابان بلد الآلهة ، وأهلها سلالة الآلهة فبين الشعب الياباني وبين الصينيين والهنود والروس والهولنديين والساميين والكمبوديين وسائر أمم العالم ، خلاف في النوع ، ولا يقتصر الأمر على اختلاف في الدرجة ، فلم يكن مجرد الغرور بالنفس هو الذي جعل أهل هذه البلاد يسمونها أرض الآلهة ؛ فالآلهة الذين خلقوا كل بلاد الدنيا ينتمون جميعاً بغير استثناء إلى العصر الإلهي ، وجميعهم ولدوا في اليابان ، فالإلهة هي مواطنهم الأول ، والعالم كله يعترف بصدق هذا النبا ، فالكوريون هم أول من أتيح له أن يعرف هذه الحقيقة ثم انتشرت منهم تدريجاً حتى عمّت المعمورة بأسرها ، وآمن بها الناس أجمعون ... فلئن كانت البلاد الأخرى قد نشأت طبعاً بفعل قوة الآلهة الخالقة ، إلا أنها لم تكن وليدة « إيزانا جي » و « إيزانامي » ، ولا كانت المنشأ الذي ولدت فيه إلهة الشمس ، وهذا هو علة انحطاطهم عنا » (١٢٣) .

هوؤلاء هم الناس ، وتلك هي الآراء ، التي كونت حركة « سونوجوإي » ومرماها أن « تسمو بالإمبراطور ، وأن تطرد الأجانب الهمج » ؛ فكانت هذه الحركة إبان القرن التاسع عشر للشعر الياباني أن يطيح بسلطة الحكام العسكريين ؛ وأن يعيد السلطان والسيادة « للبيت الإلهي » ، ثم أخذت هذه الحركة تلعب دوراً نشيطاً في القرن العشرين ، إذ أخذت تغذي تلك الوطنية المستقلة التي لن تظمن وترضى إلا إذا بسط « ابن السماء » سلطانه على ملايين الناس في بلاد الشرق التي تعود ، إلى بعثها ، متكاثرة بخصوبة نسلها .